الحياة الربانية والعلم

تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة

يوسف القرضاوي

www.al-mostafa.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

من الدستور الإلهي

(اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)

(أمن هو قانت آناء الليل وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب)

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)

(وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذين بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد..

فقد تعرفت على التصوف مبكرا عن طريق كتبه، وعن طريق أحد أعلامه، وهو الإمام أبو حامد الغزالي الذي اعتبره شيخي الأول رضي الله عنه.

كنت في الخامسة عشر من عمري، بعد أن أنهيت السنة الأولى من القسم الابتدائي بمعهد طنطا، وكان عندي نهم للقراءة في غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر.

وكانت قراءتي في طنطا ـ خارج الدراسة ـ في كتب الأدب، وخصوصا أدب المنفلوطي في نظراته، وعبراته، ورواياته، التي كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطي في دار الكتب بطنطا، شبه بالية، لكثرة تقليبها في الأيدي.

أما قراءتي في قريتي ـ صفط تراب ـ فلم يكن فيها دار كتب، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده في مثل تلك القرى، وفي ذلك العصر، لهذا حين أردت أن اقرأ وجدت كتب التصوف هي المتاحة لي.

اتصالي بالإمام الغزالي مبكرا

شاء القدر أن يهيئ لي كتابين كلاهما للغزالي: أحدهما: وجدته بين كتب زوج خالتي وكان رجلا صالحا حافظا لكتاب الله، يعيش في خدمة بيت الله، قلما يخالط الناس، رحمه الله. هذا الكتاب هو "منهج العابدين" الذي صنفه الغزالي قبل وفاته بقليل.

وقد وجدت متعة كبيرة في قراءة هذا الكتاب، واستعنت به في دروسي ووعظي في تلك المرحلة، وإن كان لي عليه مآخذ وملاحظات، وخصوصا في باب التوكل والزهد، وما فيه من توجهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط.

والثاني: "إحياء علوم الدين" فقد كان يقتنيه جار لنا، من نبهاء أهل القرى، الذين كان لهم حظ في الاطلاع على بعض كتب الشافعية في العبادات، وخصوصا في الطهارة والصلاة، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء، وكان تلميذا لأحد مشايخ الطريق في بلدتنا، وهو الشيخ محمد أبو شادي، الذي كان خليليا، ثم استقل بطريقة قوامها: العبادة والذكر، ثم قراءة "الإحياء" وشعارها الذي يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان ولابد من

ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين! (اعتبروا ذكر الآخرة مغايرا لذكر الله، وهو غير صحيح، لأن ذكر الآخرة يعني: ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه).

وقد شهدت بعض "حضراتهم" ولم أستمر معهم، إذ لم يشبعوا كل نهمي، ولم يوافقوا مزاجي الوسطي.

فهذا ما جعل جارنا الشيخ بيومي رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب "الإحياء" الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف، وخصوصا: ربع "المهلكات" وربع "المنجيات" منه. مع تحفظي شخصيا على بعض ما فيه من غلو، لم يكن ملائما لطبيعتي، ولكني كنت أتأثر بما فيه من رقائق، وترتعش جوانحي، ويترقرق دمعي، وهذا من دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله.

ولما رآني الشيخ بيومي حريصا على الكتاب، تركه لي هدية، وقد بقي عندي، حتى أني اصطحبته معي إلى المعتقل سنة ١٩٤٩م، هو وبعض أجزاء من "العقد الفريد" لابن عبد ربه في الأدب.

وفي المرحلة الثانوية تعرفت على بعض كتب التصوف الأخرى مثل: شرح ابن عجيبة لحكم ابن عطاء الله السكندري، وبعض كتب الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وغيرها.

اتصالي بدعوة الأخوان وتوجهاتها الربانية

وفي تلك المرحلة توثق اتصالي بدعوة الإخوان المسلمين، وهي دعوة ربانية الأساس والوجهة، وقد كان مؤسسها ـ الإمام حسن البنا ـ رجلا ربانيا، بدأ صوفي النشأة، ثم تحرر من قيود الشكلية الصوفية، مبقيا على جوهرها. وهو سمو الروح، وطهارة القلب، ومحاسبة النفس، وصدق الصلة بالله تبارك وتعالى، وسلامة الصدر من الأحقاد، والحب في الله، والبغض في الله.

وقد تجلى ذلك في شعارات الجماعة مثل: "الله غايتنا، والرسول قدوتنا"، كما تجلى ذلك في مناهج تربيتها، ومظاهر نشاطها، حتى قال الشيخ البنا: إن دعوتنا دعوة سلفية، وحقيقة صوفية، وطريقة سنية، وهيئة سياسية..الخ.

وكانت وسائل الإخوان في التربية والتوجيه تؤكد هذا الجانب وتعمقه، مثل: الأسرة، والكتيبة، والمخيم.. وتركيزها على الذكر والبساطة والتلاوة للقرآن والمأثورات من الأدعية، وحب الخير للناس.

أثر أستاذنا البهي الخولي

وزاد هذا الجانب تعميقا في فكري ونفسي: اتصالي بأستاذنا البهي الخولي رحمه الله، وهو رجل ذواقة للمعاني الربانية، عميق الحاسة الروحية، وقد كان يرأس الإخوان في الغربية، وكانت له محاضراته ودروسه التي يظهر فيها الجانب الرباني، والتي تجسمت بوضوح في كتابه "تذكرة الدعاة" الذي قدم له الشهيد البنا.

وكان للأستاذ البهي لقاءات خاصة مع مجموعة من الشباب، اصطفاهم ـ كنت واحدا منهم ـ نصلي الفجر معا كل أسبوع، ونذكر الله عز وجل، ونعيش في جو روحي محلق، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم "كتيبة الذبيح"، يعني بالذبيح: إسماعيل عليه السلام، الذي أسلم عنقه طاعة لله دون تلكؤ ولا تردد (قال يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين)

الشيخان: الأودن وعبد الحليم محمود

وفي دراستي العالية بكلية أصول الدين لقيت بها بعض شيوخنا الربانيين، الذين عمقوا في هذا الجانب الروحي أو الرباني، أبرزهم اثنان: الأول هو شيخنا محمد الأودن أستاذ الحديث، والثاني: هو شيخنا عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة، الأول أزهري معمم، والثاني أزهري متخرج من فرنسا، يلبس ـ حينذاك ـ "البذلة" ولا يلبس العمامة، وكان لكل شيخ منهما طريقته وتأثيره. الأول يؤثر بقوة كلامه وتدفقه، والثاني يؤثر بصمته وتعمقه.

الأول محرض ضد الباطل، فهو أقرب إلى الروح الثورية، والثاني داعية إلى الزهد والإقبال على الله. وكان الأول بروحه وقوة منطقه، وسخائه في بيته، وتواضع مظهره أقرب إلى نفسي وإلى طبيعتي، وإن كنت أحب الشيخ عبد الحليم وأقدره. وقد درسني الفلسفة في السنة الثالثة والسنة الرابعة من الكلية، على حين لم يدرسني الشيخ الأودن، وإنما كانت زيارتي له في بيته بضاحية الزيتون.

كل هذا قوى المعاني الربانية في نفسي، وزادها عمقا في كياني، ولم تكن عائقا عن عملي في "الدعوة" الذي شغل جهدي ووقتي، بل كان دافعا ومعينا.

ولقد اتسعت دراستي للتصوف في تلك الفترة، كما اتصلت اتصالا أعمق، بـ "المدرسة السلفية" وإماميها المجددين: ابن تيمية وابن القيم، وقد أعجبت بالنظرة الشمولية التجديدية المتوازنة في هذه المدرسة، ومقاومتها لما دخل على الإسلام من تحريفات وانحرافات في الفكر أو في السلوك، ووجدت في إنتاج هذه المدرسة ما قوى عندي التوجه الرباني بضوابطه الشرعية.

وهكذا كان التصوف عندي فكرا وروحا وخلقا، لا عهدا على شيخ، ولا التزاما بطريقة من الطرق الصوفية المعروفة، فقد أغنتني دعوة الإخوان عن أي طريقة، وأغناني إمامها وأصحابه عن البحث عن شيخ رسمي من مشايخ الطريق.

كما صرفني عن الطرق ما دخل عليها من خلل واضطراب في الفكر، وفي السلوك، وكذلك فقد أهل الصدق والإخلاص في صفوف قوادها، إلا من رحم ربك، وغلبة الاتجار بالاسم والزي واللقب على الكثيرين.

ولا غرو أن يلمس المراقب المنصف في جنبات كثير من التصوف المعاصر: الشركيات في العقيدة، والبدع في العبادة، والسلبية في الأخلاق، والشكلية في الذكر، والتسيب في الفكر.

ومع هذا لم أتخذ موقفا عدائيا من التصوف كله، بل ظللت أنتفع به، وأقتبس منه، في محاضراتي وخطبي، وفي مؤلفاتي وكتبي.

مواقف عملية معبرة

وفي "ملتقى الفكر الإسلامي" الذي عقد في الجزائر سنة ١٩٨٧م ـ على ما أذكر ـ كان موضوعه "الإسلام والحياة الروحية" وطلب إلي منظمو الملتقى أن أفتتحه بمحاضرة أساسية عن "منهج القرآن والسنة في إقامة الحياة الروحية".

وألقيت هذه المحاضرة، وكانت مرتجلة، ولكنها معدة إعدادا طيبا، موثقا بالأدلة الناصعة من الكتاب وصحيح السنة، مستأنسا بأقوال ربانيي الأمة، ولا سيما كبار شيوخ الصوفية المشهود لهم بالاستقامة والفضل. ولقد لاحظت أن المحاضرة شدت جمهور الحاضرين، وكان لها تأثير بالغ على نفوسهم، حتى قام صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطي، وقال: لقد ظهر لنا أن الشيخ القرضاوي صوفي مقنع! يريد أن يخفي صوفيته بقناع العقلانية والسلفية!

وقال لي صوفي جزائري كبير معروف، ونحن على مائدة الغداء: لقد منحك الله شيئا، به يتميز كلامك عن غيره، قلت: وما هو؟ قال: اللوعة! قلت: ماذا تعني؟ قال: في كلامك حرقة غير مصطنعة، تؤثر في سامعيك وهي هبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده.

وأذكر أني في جلساتنا مع شيخنا البهي الخولي رحمه الله، كنت أنقد بعض كلمات الصوفية وبعض مواقفهم، فكان يحسبني متمردا على التصوف كله، فلما أخرجت كتابي "العبادة في الإسلام" وكتابي "الإيمان والحياة" قال لي: إنك تحمل قلب صوفي خدعنا عنه عقل الفقيه!

وفي زيارتي لندوة العلماء ودار العلوم بمدينة لكنهو بالهند، في أوائل الثمانينات، ألقيت عددا من المحاضرات في موضوعات فكرية متعددة كان لها وقعها وأثرها، ولكن أهم ما لفت نظري قول الإخوة من علماء الندوة وأساتذة الدار: إننا اكتشفنا أنك من رجال التربية الروحية!

ويبدو أن الجميع يعتقدون أن سلفية الداعية، وعقلانية المفكر، تتعارضان مع النزعة الربانية أو الروحية، وهذا في رأيي غير صحيح، فقد كان ابن تيمية وابن القيم سلفيين وهما ربانيان، وكان الغزالي عقلانيا، وهو رباني. فلا تناقض بين هذه الأمور إذا فهمت على وجهها السليم، ووضع كل منها في موضعه الصحيح، وإن كان بيني وبين هؤلاء الربانيين مراحل ومراحل.. وأسأل الله العفو والمغفرة.

موقفي النظري من التصوف

وقد بينت موقفي من التصوف في الجزء الأول من كتابي "فتاوى معاصرة" في فتويين من فتاواه، وهو موقف يتميز بالإنصاف، والاعتدال في تقويم التصوف، فلست مع المفرطين في مدحه، ولا من المبالغين في قدحه.

فأحمد الله أن هداني إلى الموقف الوسط، الذي لا يطغى في الميزان ولا يخسر الميزان، كما علمنا الله تعالى في كتابه: (والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان). فالعدل بين الطغيان والإخسار، بين الإفراط والتفريط، فقد ذكرت ما للتصوف وما عليه، ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوفة في الحياة الإسلامية، فكم أسلم على أيديهم من كافر، وكم تاب على أيديهم من عاص، وكم رققوا من القلوب،

وزكوا من النفوس، وهذبوا من الأخلاق، فلنذكر هذا لهم، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات، والمتقدمون فيهم ـ بصفة عامة ـ أفضل من المتأخرين.

فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية

ولقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مع صرامته في الالتزام بمنهج السلف، وشدته في مقاومة البدع ـ يقف من التصوف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل، وهذا من إنصافه وسعة علمه، ورحابة أفقه، رضي الله عنه.

وقد نقلت عنه في فتواه الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية، فكان جوابه الذي ذكره في رسالته عن "الفقراء" وهو أعدل ما قيل في القوم، قال رحمه الله:

"تنازع الناس في طريقهم: فطائفة ذمت "الصوفية والتصوف: وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.. وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم "السابق" المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم "المقتصد" الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو "ظالم نفسه"، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين، من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره".. والله أعلم.

تقويم ابن القيم للصوفية

وكذلك أنصف الصوفية الإمام ابن القيم، كما تجلى ذلك في شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروي "منازل السائرين" وقد كان ابن القيم يعظم الهروي ويقدره، لأنه كان حنبليا، وتوجهه في فهم العقيدة وبيانها توجه سلفي، ولا عجب أن يطلق عليه لقب "شيخ الإسلام"، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحا يقربه إلى منهج الكتاب والسنة، وهدى سلف الأمة، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة، ومع هذا لم يملك في كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه، فالحق أحق أن يتبع، والرجال يعرفون بالحق، وليس الحق يعرف بالرجال.

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المنصف المعتدل قوله في شرح ما ذكره الهروي عن منزلة "الرجاء" وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات:

"شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه! وكل من عدا المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمأخوذ من قوله ومتروك".

وبعد محاولة من ابن القيم لحمل كلام الهروي على أحسن المحامل قال:

"هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه الشطحات أوجبت قتنة على طائفتين من الناس، إحداهما: حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقا وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن. وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم.

وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: ـ وهم أهل العدل والإنصاف ـ الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يقبل، وردوا ما يرد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي تحذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها. وتبرءوا منها، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته: أن أبا سليمان الداراني رؤى بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم.

وقال أبو القاسم: سمعت أبا سعيد الشحام يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام، فقلت له: أيها الشيخ، فقال: دع التشييخ، فقلت: وتلك الأحوال؟ فقال: لم تغن عنا شيئا، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز.

وذكر عن الجريري: أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات.

التصوف باعتباره تراثا تربويا

هذا والتصوف باعتباره تراثا في التربية الأخلاقية والسلوك الإيماني، لا يمكن الاستغناء عنه، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة.

ولهذا ظل في نفسي خاطر يراودني من زمن، وهو الكتابة في هذا الجانب الروحي، أو الرباني، أو الإيماني، أو الأخلاقي، الذي سماه العلامة أبو الحسن الندوي "ربانية لا رهبانية"، كتابة تستمد من القرآن والسنة، وتستفيد من سلف الأمة، ومن تراث القوم الرحب، وتزنه بميزان الشريعة المعصومة، وتصله بقيم الإسلام الشامل المتوازن، وتترجمه إلى لغة العصر، بحيث يفهمه طالبوه، ويتعاملون معه بيسر.

ما ثبطني عن الكتابة في السلوك

بيد أنه كان مما يثبطني عن ذلك: ما أعلمه عن نفسي من تفريط في جنب الله تعالى، وتقصير في طاعته سبحانه، وأن جناحي مهيض عن الطيران في هذه الأجواء العليا، فكيف ألقي بنفسي في بحر خضم لا أحسن السباحة فيه، ولا الغوص في أعماقه؟

وإذا كان لي فضل هنا ـ والفضل لله وحده ـ فهو أني أعرف نفسي جيدا، ولا تستطيع بمكرها أن تخدعني عن سبر غورها، وكشف زيفها، ولم يغرني عن استبانة حقيقتها مدح الناس لي، وثناؤهم على شخصي، وذلك لأن الخلق يتعاملون مع الظواهر لا مع السرائر، مع القشور لا مع اللباب، مع السطوح لا مع الأعماق.

وأنا أتمثل دائما بقول ابن عطاء الله في حكمه: "الناس يمدحونك بما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها.. أجهل الناس من يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس"!

وكم أخجل من نفسي ـ والله ـ حين يضفون علي من الأوصاف ما لست أهلا له، وهذا من جميل ستر الله على عباده، وما أجمل ما قاله أبو العتاهية:

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح

فإذا المستور منا بين جنبيه فضوح

وفي هذا قال ابن عطاء أيضا:

"المؤمن إذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه! إذا أطلق الثناء عليك ولست له بأهل، فاثن عليه ـ تعالى ـ بما هو أهله! من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك"!

وكثيرا ما كنت أتمثل ـ عندما يمدحني مادح أحسن بي ظنه ـ بقول الشاعر الصالح يناجي ربه:

يظنون بي خيرا وما بي من خير ... عبد ظلوم كما تدري ولكنني!
سترت عيوبي كلها عن عيونهم ... ثوبا جميلا من الستر وألبستني
فصاروا يحبوني، وما أنا بالذي ... ولكن شبهوني بالغير يحب،!
بينهم فلا تفضحني في القيامة ... يا مولاي في موقف الحشر وكن لي

كان حيائي من ربي، ثم من نفسي وتقصيري، حائلا بيني وبين الدخول في علم السلوك، رغم طلب عدد من إخواني وتلاميذي أن أكتب في ذلك للناس شيئا، لعل الله ينفع به.

ثم قوى عزمي على ذلك قوة رجائي في رحمة الله تعالى ومغفرته وإحسانه، وأني إن لم أكن أهلا أن أنال رحمته، فرحمته أهل أن تنالني، وقد قرأت في الصحيح: أن رجلا جاء يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال له: "وما أعددت لها؟" قال: والله ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله! قال: "أنت مع من أحببت".

فما فرح الصحابة بشيء فرحهم بهذا الحديث، ليقينهم بأنهم يحبون الله ورسوله.

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يحب القوم، ولما يلحق بهم! قال: "المرء مع من أحب".

بل صح أن رجلا جئ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات كثيرة في شرب الخمر، وهو يضرب، ثم يعود، حتى قال بعض الصحابة، ما أكثر ما يؤتى به، لعنة الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله".

وأنا أرجو أن أكون ممن يحب الله ورسوله، ويحب الصالحين من عباده، وإن لم يكن منهم: كما قال القائل:

أحب الصالحين ولست منهم ... أنال بهم شفاعة عساني أن!

وأكره من بضاعته المعاصي ... سواء في البضاعة وإن كنا!

حاجة الناس إلى الحياة الربانية والتربية الإيمانية

لقد تبين لي من خلال التجربة العملية، والممارسة الميدانية، مع عوام الناس ومع مثقفيهم، مع الغافلين منهم، ومع العاملين في الجماعات الإسلامية المختلفة، أن الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة، تغسل قلوبهم من حب الدنيا، ومن حب أنفسهم، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء وللأوهام، ليعتصموا بالعبودية لله وحده، وبذلك يطهرون عقولهم من الشرك، وقلوبهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وأقوالهم من اللغو، وعباداتهم من الرياء، ومعاملاتهم من الغش، وحياتهم من التناقض.

وبعبارة أخرى: هم في حاجة إلى "التزكية" للنفوس، التي لا فلاح بغيرها، كما قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بمهمته خير قيام، وربى أفضل جيل عرفته البشرية: إيمانا وتعبدا، وخلقا وبذلا، وجهادا في سبيل الله، وكان هذا الجيل النموذجي معلما للبشرية كلها من بعد.

والناس أحوج ما يكونون إلى التأسي بهذا الجيل الرباني، والتخلق بأخلاقه التي وصفها الله في آخر سورة الفتح، وتحقيق "شعب الإيمان" السبعة والسبعين في حياتهم حتى يرضى الله عنهم، وحتى يصلوا إلى درجة "الإحسان" الذي عرفه الرسول الكريم بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك" كما جاء في حديث جبريل المشهور.

إنهم في حاجة إلى معرفة عيوب النفس، وأمراض القلوب، ومجامع الهوى، ومداخل الشيطان، وكيف يتقيها المسلم ما استطاع، فالوقاية أسلم، وكيف يعالجها إذا سقط فيها، فما جعل الله داء إلا جعل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله.

ولكن الخطر هو اهتمام الناس بأمراض أبدانهم، وغفلتهم عن أمراض قلوبهم، وإذا تنبهوا لها، فأين يجدون أطباء القلوب؟ والمفروض أنهم العلماء، بيد أن العلماء أنفسهم باتوا من جملة المرضى، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد قال الشاعر:

تغيره بالملح يصلح ما يخشى ... بالملح إن حلت به الغير؟ فكيف!

لكن الخير لن ينقطع عن هذه الأمة، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة.

إن الحياة المادية المعاصرة: رحى طحون، والناس هم الحب المحصور بين حجريها الكبيرين، تطحنهم طحنا، ثم بعد ذلك يعجنون ويخبزون، ولا تنضجهم إلا النار!

ولا سبيل أمام البشرية عامة، والمسلمين خاصة، إلا بالحياة الربانية.

إنهم في حاجة إلى "ربانية نقية" ترفعهم من حضيض عباد الشيطان، إلى ذرا عباد الرحمن، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والدرهم، وعبودية الدنيا، إلى سعادة التحرر منها، وعز طالب الآخرة. إنهم في حاجة إلى "الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق"، وهذا ملخص التصوف، أو هو تقوى الله والإحسان إلى خلقه، وهذا هو الدين كله، وإليه الإشارة بقوله تعالى في ختام سورة النحل: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

نريدها "ربانية نقية" واضحة الغاية، بينة الطريق، مستقيمة على أمر الله، متبعة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماضية على نهج السلف، بعيدة عن بدع القول والعمل، وانحراف الاعتقاد والسلوك، تسمو بالروح، وتزكي النفس، وتحيي الضمير، تجدد الإيمان، وتصلح العمل، وترقى بالأخلاق، وتنمي حقيقة الإنسان!

لا نريدها دروشة منحرفة، ولا رهبانية مغالية، ولا مظهرية زائفة، ولا نظريات فلسفية بعيدة عن روح الإسلام، ووسطية الإسلام.

موقف بعض السلفيين من التصوف

وأود أن أنبه هنا: أن بعض الإخوة السلفيين يغالون في الموقف من التصوف، ويعتبرونه كله شيئا دخيلا على الإسلام، ويتهمون أهله كلهم بالابتداع والانحراف، كما يتضح ذلك من تعليقات العلامة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله، على كتاب "معارج السالكين" لابن القيم، ومثله كثير من أتباع المدرسة السلفية، الذين أرسلوا أقلامهم وألسنتهم شواظا من نار على التصوف كله، وعلى أتباعه جميعا، قديما وحديثا، وهذه مبالغة غير صحيحة، وغير مقبولة، وغير نافعة.

ابن تيمية وابن القيم رجلان ربانيان

ومن العجيب أن هؤلاء ينتمون إلى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وهما من الربانيين الصادقين نظريا وعمليا.

نظريا.. كما تدل على ذلك كتاباتهما، فابن تيمية له رسائل في التصوف والسلوك بلغت مجلدين من مجموع فتاويه، بالإضافة إلى كتابه "الاستقامة" الذي صدر في جزأين بتحقيق الدكتور رشاد سالم رحمه الله.

وابن القيم له مجموعة كبيرة من المؤلفات، مثل: الجواب الكافي، وطريق الهجرتين، وعدة الصابرين، وروضة المحبين، وأعظمها وأوسعها من غير شك: مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين).

وعمليا.. كما دلت على ذلك سيرة الرجلين، وصلابتهما في الحق، وصبرهما على الأذى، وجهادهما في سبيل الله، وحبهما لله ورسوله، وإقبالهما على الله تعالى، إقبالا يشهد به كل من عرفهما واقترب منهما، رضي الله عنهما.

حسبك من ابن تيمية أنه تقبل المحن والسجن في سبيل الله، بنفس راضية، وقلب مطمئن، قائلا: "إن جنتي في صدري، حيثما ذهبت فهي معي، ماذا يصنع أعدائي بي؟ إن سجنوني فسجني خلوة! وإن نفوني فنفيي هجرة! وإن قتلوني فقتلي شهادة!".

وحين أدخل القلعة ليسجن، ورأى سورها، ذكر قول الله تعالى: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب).

إنها الربانية التي تستعذب العذاب في سبيل الله، وتعيش في جنة الرضا مهما أصابها في ذات الله.

ومن إنصاف ابن تيمية: أنه أثنى على كثير من مشايخ الصوفية، ومنهم الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي نقل عنه بعض كلماته في "القدر" ونوه بها، وكذلك ابن القيم.

وهذا ما ينقص كثيرا ممن يدعون الانتساب إلى مدرسته، ولا تجد لأحدهم عينا تدمع، ولا قلبا يخشع، ولا جسدا يرتعش، من خشية الله تعالى، ولا تحس لديهم تلك العاطفة الندية الدافقة بحب الله تعالى ورسوله.

ولكنه الاتباع الآلي الجاف الصارم، كأنما هو ترس في ماكينة، يدار فيدور، ولا روح له، ولا حياة فيه!

وفي مقابل هؤلاء صنف يتمتع بالعاطفة الحارة، والوجدان الحق، والروح الفياض بالحب والخشية، ولكنه غير منضبط بضوابط الشرع، يحكمه ذوقه ووجدانه، أو ذوق مشايخه ووجدانهم، وهؤلاء هم أكثر المتصوفة، أعني المخلصين منهم.

وكلا الصنفين أفرط في ناحية وفرط في أخرى، والخير كل الخير في الوسطية المتميزة عن طرفي الإفراط والتفريط.

تصويف السلفية، وتسليف المتصوفة

لهذا كان من الخير أن نطعم كل واحد من الصنفين أو الطرفين بالمزايا التي عند الطرف الآخر، وهو ما عبر عنه المفكر المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله بقوله: نسلف الصوفية، ونصوف السلفيّة!

وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين، منزه عن عيوب كل منهما.

وأحسب أن هذا ما حاوله الإمام حسن البنا الذي كان يجمع ـ في رأيي ـ عقلية السلفي الملتزم، وروحانية المتصوف المحلق.

وهذا ما أحاول أن أصل إليه بإصدار هذه السلسلة التي أدعو الله أن يوفقني فيها، لأبين فيها لسالكي الطريق إلى الله تعالى: ما ينبغي علمه وعمله، حتى يجوزوا عقباته، ويقطعوا مراحله، ويتخطوا عوائقه، بيقين أهل المعرفة،

وعزيمة أهل الصبر، ونية أهل الإخلاص، وجهاد أهل الصدق، وثبات أهل الإيمان، وإحسان أهل المحبة.

منهجنا في هذه الدراسة

وسأجتهد في هذه الدراسة: أن نرد التصوف إلى جذوره الإسلامية، مستمدين من محكمات القرآن الكريم وصحيح السنة المطهرة، وأن أنقي التصوف الحق مما علق به من شوائب كدرت صفاءه، وشابت جوهره، مما تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووسطيته، ومما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم وتجاوزاتهم المائلة إلى الغلو حينا، وإلى التقصير حينا آخر، ودين الله ـ كما قال سلف الأمة ـ بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقد كان مما أثر في التصوف جملة أشياء، منها:

١. قبول "الإسرائيليات" التي جاء بها من أسلم من أهل الكتاب، وكثير منها لا يوجد له أصل في كتبهم المعروفة، مما يدل على أنها من حكايات العوام بعضهم لبعض.

٢.أخذ كل ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التسليم، دون تمييز بين ما يقبل وما يرد، بناء على ما قيل من أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، وفي الترغيب والترهيب ونحو ذلك، ورغم أن هذا ليس متفقا عليه، فإن الذين قالوه اشترطوا لقبول الضعيف شروطا لم يراعها المتصوفة في الغالب، حتى إنهم رووا الأحاديث الضعيفة جدا، والتي لا أصل لها بالمرة، والموضوعة المكذوبة، وهذا شائع بينهم ومعروف.

٣. الثقة المطلقة بشيوخهم، فما قاله الشيخ فهو حق، وما أمر به فهو مطاع، دون أن يعرض ذلك على الشرع، وقد شاع في التربية عندهم قولهم: من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح! المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل!! مع أن من المقرر المتفق عليه: أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه، إلا المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم.

٤. الثقة كذلك بأذواقهم ووجداناتهم الخاصة، وما يأمر به الكشف والإلهام، والرجوع إلى حكمها مثل حكم الشرع أو قبله! مع أن تلك الأذواق والإلهامات، غير مأمونة ولا معصومة، وقد أغنانا الله عنها بالوحي الذي لا يضل ولا ينسى.

٥. عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع في العبادات والأذكار والسلوكيات، ووضع أوراد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سنة، وإنما هي ما أحدثه الناس، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

لهذا سيكون عمدتنا هو القرآن الكريم المصدر الأول للملة، والينبوع الأول للعقيدة والشريعة والتربية والسلوك، ثم السنة المشرفة المبينة للقرآن، مكتفين بالصحاح والحسان من الأحاديث، فهي التي تبين موقف الإسلام من الأحكام ومن السلوك، وما نذكره من حديث نبين من أخرجه ودرجته، وعندنا من الأحاديث المقبولة ما يغنينا عن الأحاديث الواهية، وإذا ذكرنا ـ في أحيان قليلة ـ الضعيف، فذلك للاستئناس به لا للاحتجاج والاستشهاد.

وسنضرب صفحا عن الإسرائيليات إلا ما كان منها مؤيدا لما ثبت في ديننا من فضائل ومكارم، وكذلك عن غرائب الأقوال والحكايات التي تتسم بالمبالغة والتهويل، ولا يقوم على صحتها دليل.

وسننقل عن كبار شيوخ القوم مالا بد لنا منه، لشرح المفاهيم، وبيان الحقائق، وتوضيح القيم، وخصوصا المعروفين منهم بالاستقامة والالتزام، مثل سيد الطائفة الجنيد، وسهل التستري، وأبي سليمان، والزهاد الأوائل مثل: الحسن البصري، والفضيل بن عياض ومالك بن دينار وغيرهم.

وسنقتبس من تراث القوم ما يكشف الغوامض، وينير العقول، ويوقظ القلوب، ويحرك العزائم، مثل كتب الحارث المحاسبي، والقشيري، وأبي طالب المكي، والغزالي، وابن القيم، وابن عطاء الله، وغيرهم.. إلى جوار ما نأخذ من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمربين، من القدماء والمحدثين.

وسنبتعد عن "المصطلحات" والكلمات المثيرة للجدل والخلاف، متوخين السهولة والتيسير والاعتدال، فإن هدفنا أن نبني ولا نهدم، وأن نجمع ولا نفرق، وأن نهدي ولا نؤذي، والعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين.

وأملنا أن نسهم ـ بهذه السلسلة ـ في تقريب الناس من ربهم الذي خلقهم فسواهم، لنأخذ بأيديهم إلى الله، ونحشدهم في ساحة رضاه، والتخفيف من التكالب على الدنيا والغفلة عن الآخرة، وتقوية الإيمان في القلوب، حتى يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، فإن لم يرق إلى هذه الدرجة، فليطهر صدره من الغل والحسد والأحقاد والبغضاء، فإنها هي الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والتحذير من القواطع الأربعة، التي تقطع السالكين عن طريق الله، والتي قال فيها الشاعر:

إني بليت بأربع يرمينني	عن قوس له توتير بالنبل!
والورى إبليس والدنيا ونفسي	أنت على الخلاص قدير يا رب!

التوازن بين فقه الأحكام وفقه السلوك

الحق أن فقه الأحكام الفرعية العملية المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ومعايش الناس، قد شغل من حياتنا وفكرنا وجهدنا حيزا كبيرا، خواصنا وعوامنا.

لهذا الفقه أنشئت المجامع المحلية والعالمية، وعقدت الندوات والمؤتمرات المتخصصة، وأنشئت الكليات والأقسام، وألفت الكتب ما بين مبسوط ووسيط ووجيز.

هذا بالنسبة للخواص، وبالنسبة للعوام، قد شغلوا أنفسهم وشغلهم علماؤهم بالجزئيات و التفصيلات، بل التعقيدات، حتى غدا باب الطهارة يدرس للجمهور خلال شهر رمضان كله، ثم لا ينتهون منه.

هذا.. وقد كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من باديته، فلا يمكث إلا يوما أو أياما، ثم يعود إلى قومه، وقد فقه دينه، بالرؤية والمشاهدة: "صلوا كما رأيتموني أصلي".

ليس معنى هذا أن نهمل فقه الأحكام الظاهرة، بل هو مطلوب وواجب، ولكن التوازن مطلوب وواجب أيضا: التوازن بين الظاهر والباطن، أو بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب.

لقد جعل الإمام الغزالي "الفقه" القائم على مراعاة الظاهر وحده، من "علوم الدنيا" لا من علوم الآخرة! حتى إنه عاب على أهل الفقه في زمنه تركهم بعض فروض الكفاية المهمة للأمة، وأكبوا على الفقه لما وراءه من مناصب القضاء والإفتاء وغيرها، على حين لا يوجد طبيب في البلدة إلا من أهل الذمة!

لذا كان لابد أن نعيد لـ "فقه القلوب" مكانه ومكانته، ونعطيه حقه من الاهتمام العلمي والعملي، وأن نوجه عناية الخاصة والعامة إلى "فقه السلوك"، سلوك طريق الله، وطريق الآخرة، فلا نجاة إلا به، ولا صلاح بغيره، بل لا حياة بدونه، ولا وصول إلى الله بسواه.

إنها التجارة الرابحة التي غفل عنها أكثر الخلق: التعامل فيها مع رب العالمين، ورأس المال لها هو العمر، والبضاعة هي الطاعة، والربح هو المغفرة والجنة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور).

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

فمن ضيع هذه التجارة، فقد ضيع نفسه، وخسر كل رأس ماله، وفاته خير الآخرة والأولى.

عمره على نفسه فليبك من ضاع منها نصيب ولا سهم وليس له!

وصدق الله إذا يقول: (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين).

وخسارة رأس المال هنا لا عوض لها، إذ لا عمر بعد العمر، ولا تأخير إذا جاء الأجل: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون).

أسأله تعالى أن يجعل هذه الدراسات قبسا من العلم النافع، وعونا على العمل الصالح، ونورا يضئ الطريق، ويجعلها لي لونا من المجاهدة فيه، ولا يحرمني من الهداية التي وعدها بقوله: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين).

"اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عمل لا يرفع، ومن دعوة لا يستجاب لها".

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يتعلمون فيعلمون، ويعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيثبتون، ويثبتون فيقبلون.

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد)

الدوحة في ذي الحجة ١٤١٣هـ ـ يونيو (حزيران) ١٩٩٣م.

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

الباب الأول

خصائص الحياة الربانية أو الروحية في الإسلام

للحياة الربانية أو الروحية في الإسلام خصائص تميزها عن أي حياة تنسب إلى الروح في الأديان الأخرى، كتابية أو وضعية.

١. التوحيد

التوحيد هو أول خصائص الحياة الروحية في الإسلام، وهو أيضا أول مقوماتها، فلا وجود لهذه الحياة بغير التوحيد، ولا تميز لها بغير التوحيد.

ومعنى التوحيد هو: إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يعبد إلا الله، ولا يستعان إلا بالله، وهذا مقتضى قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) الآية التي جعلها الله تعالى واسطة عقد فاتحة الكتاب وأم القرآن، وجعلها الإمام الهروي محور رسالته "منازل السائرين، إلى مقامات: إياك نعبد وإياك نستعين" والتي شرحها ابن القيم في "مدارج السالكين".

والعبادة معنى مركب من عنصرين: غاية الخضوع للمعبود، مع غاية الحب له، كما شرحنا ذلك في كتابنا "العبادة في الإسلام". وهي الغاية من خلق المكلفين جميعا: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

لقد بين القرآن أن الأنبياء جميعا بعثوا إلى أقوامهم برسالة التوحيد: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وتحريرهم من عبادة الطاغوت أيا كان اسمه وعنوانه، وأيا كان شكله وصورته: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

قد يكون هذا الطاغوت المعبود من دون الله بشرا أو جنا مختفيا عن الأعين. وقد يكون حيوانا كالبقرة والعجل، وقد يكون قوة من قوى الطبيعة، وقد يكون

حجرا من الأحجار، نحته الناس وصوروه ثم عبدوه! قد يكون شيطانا مريدا، وقد يكون نبيا معصوما أو وليا صالحا، ولا ذنب له في عبادتهم إياه.

جاء الإسلام يحرر الناس من عبادة غير الله: عبادة الأشخاص، وعبادة الأشياء، وعبادة الأهواء، وقد قال ابن عباس: "شر إله عبد في الأرض الهوى".

وكانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك النصارى وأمراء أهل الكتاب تختم بهذه الآية الكريمة: (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله).

إن الذي أفسد الحياة، وأضل الناس، ليس هو الإلحاد، فقد كان الملحدون الجاحدون لوجود الله قلة لا وزن لها طوال عصور التاريخ، إنما هو الشرك، الذي جعل الناس يعبدون مع الله آلهة أخرى، يزعمون أنها شفعاؤهم عند الله. وقد غدا هذا الشرك وكرا للكهانة والدجل، ومباءة للخرافات والأباطيل. والانحطاط بالإنسان من ذرا الكرامة إلى حضيض الهوان: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق).

إن الحياة الروحية كما يريدها الإسلام تقوم على التوحيد الخالص لله، وهذا التوحيد يقوم على عناصر أربعة، أشارت إليها سورة الأنعام، وهي سورة التوحيد:

أولها: ألا يبغي غير الله ربا: (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء).

وثانيهما: ألا يتخذ غير الله وليا: (قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض).

وثالثهما: ألا يبتغي غير الله حكما: (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا).

ورابعها: ألا يبتغي غير رضا الله غاية: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له).

فإذا اكتملت هذه العناصر علما وحالا وعملا، تحقق التوحيد، الذي هو أساس الحياة الروحية، بل هو روح الوجود الإسلامي كله.

٢. الاتباع

وثانية خصائص هذه الحياة كما يريدها الإسلام: الاتباع.

فليست الحياة الربانية أو الروحية الإسلامية مادة هلامية رجراجة، يشكلها الناس بما يشاءون، وكيف يشاءون، بل هي حياة منضبطة بأحكام الشرع الإلهي.

وإذا كان جوهر الحياة الروحية هو حسن الصلة بالله تعالى، بذكره وشكره وحسن عبادته جل شأنه، فإن هذه الصلة مضبوطة بأصلين أساسيين:

الأول: أن تكون العبادة لله وحده، فلا يشرك به أحد، ولا يشرك به شيء، لا نبي ولا ولي، ولا ملك ولا جن، ولا بشر ولا حجر: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء).

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

الثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرعه، في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يشرع أحد في الدين ما لم يأذن به الله، فالأصل في العبادات الشعائرية التوقيف والمنع، حتى يأتي نص من الشارع ينشئها، على خلاف الأصل في العادات والمعاملات وشئون الحياة، فالأصل فيها الإذن والإباحة، ما لم يأت نص محرم من الشارع.

وقد سئل أبو علي الفضيل بين عياض رضي الله عنه عن قوله تعالى: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا): ما أحسن العمل؟ قال: أحسن العمل أخلصه

وأصوبه، فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا صوابا، قيل: وما خلوصه وصوابه؟ قال: خلوصه أن يكون لله، وصوابه أن يكون على السنة.

فالذين يحكمون أذواقهم ومواجيدهم في إنشاء صور وابتداع أشكال وأساليب للعبادة، استحسنتها عقولهم، وزينتها لهم أهواؤهم، مخطئون خطئا فاحشا، وإن كانوا يقصدون التقرب إلى الله تعالى: فإن شرعية العبادة لا تستمد من تحسين العقل، ولا من تزيين الهوى، بل من الوحي وحده.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد".

يريد: من ابتدع في ديننا صورا للتعبد لم يشرعها الله فهي مردودة عليه، غير مقبولة منه.

وقال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة".

٣. الامتداد والشمول

وثالثة هذه الخصائص تتمثل في الامتداد والشمول.

فالمسلم لا يعيش حياتين متناقضتين: روحية مستقلة ومادية منفردة..

بل هي حياة واحدة تمتزج فيها الروحانية بالمادية امتزاج الروح بالجسم والعصارة بالغصن.

فالحياة الروحية للمسلم حياة ممتدة عميقة نافذة شاملة، تصحبه في جلوته وخلوته، في البيت وفي الطريق، في العلم وفي العمل، في السفر وفي الحضر، عند النوم وعند اليقظة، فليست الحياة الروحية للمسلم مقصورة على المسجد، عند أداء العبادة الشعائرية، ثم ينطلق محلول اللجام، لا يتقيد

بشيء، بل هو مع الله دائما، لا يغفل عنه، ولا ينسى ذكره، ولا يهمل رقابته: (ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله)، (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا).

ولهذا شرع الذكر والدعاء في كل شأن من شئون الحياة: في الإصباح والإمساء، والدخول والخروج، والأكل والشرب، والنوم واليقظة، والسفر والأوبة، حتى عند الشهوة الجنسية: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا).

والمسلم في أعماله الدنيوية المحضة من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة، ليس معزولا عن الحياة الروحية، فهو مطالب بأن يراقب الله في عمله، فيتقنه، فلا يغش ولا يخون ولا يظلم: "إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن"، "إن الله كتب الإحسان على كل شيء". وهو مطالب كذلك ألا يلهيه أمر دنياه عن واجبه نحو ربه، فإذا نادى المنادي أن "حي على الصلاة" انتشل نفسه من لجة الأشغال الدنيوية، ليقف بين يدي ربه مناجيا خاشعا، وهو ما وصف الله به رواد مساجده، وعمار بيوته، بقوله: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار).

على أن المسلم بنيته الصالحة، واتجاهه الصادق إلى الله، يستطيع أن يجعل أعماله الدنيوية عبادات وقربات إلى الله تعالى.

إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى "في اللقمة يضعها في فم امرأته" من باب الممازحة والمؤانسة. حتى الصلة الجنسية المباحة، صلة الزوج بزوجه، كما جاء في الصحيح: "وفي بضع أحدكم صدقة"، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".

ومقتضى هذا أن تغدو الأرض كلها مسجدا للمسلم، يتعبد فيه لربه، وتصبح أعماله كلها قربات إلى الله جل جلاله، فهو يشعر دائما أنه في محراب صلاة، لأنه أبدا مع الله!

٤. الاستمرار

والخصيصة الرابعة هي: الاستمرار.

فإذا كانت الحياة الروحية تصحب المسلم أفقيا أو مكانيا في كل مجالات حياته، فإنها تصحبه كذلك رأسيا وزمانيا في جميع أوقاته، وأطوار حياته حتى يلقى ربه.

فإذا كانت بعض الديانات تكتفي من الإنسان أن يعبد ربه يوما في الأسبوع، أو ـ على الأصح ـ ساعة من يوم، ثم ينصرف عنه سائر الأسبوع إلى دنياه وشهواته ومشاغله الخاصة ـ فإن الإسلام له موقف آخر.

إن هناك عبادات تطلب من المسلم في العمر مرة واحدة، مثل الحج، طلب افتراض وإلزام.

وهناك عبادات تطلب من المسلم كل عام، مثل صوم شهر رمضان، وزكاة الأموال الحولية.

وهناك عبادة تطلب من المسلم كل أسبوع مرة، وهي صلاة الجمعة.

ولكن هناك ـ إلى جوار هذا كله ـ عبادة يومية، تصل المسلم دائما بربه وتجعله على موعد معه، في كل يوم خمس مرات، تذكره إذا نسى، وتنبهه إذا غفل، وتقويه إذا ضعف، وهي الصلوات المفروضة، التي اعتبرها الإسلام عمود الدين، والفيصل بين المسلم والكافر: (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين).

وهي عبادة تجب على المسلم في السفر والحضر، وفي الصحة والمرض، وفي السلم والحرب، لا تسقط بحال من الأحوال.

ولهذا نجد في الفقه الإسلامي صلاة المسافر، بما فيها من قصر وجمع، وصلاة المريض، وفيها حديث: "صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب".

وصلاة الخوف ـ أو صلاة الحرب ـ وفيها جاء قوله تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم).

حتى في حالة التحام الصفوف، والتقاء السيوف بالسيوف، واحتدام المعركة بين الطرفين، يصلي المسلم كيفما استطاع، راجلا أو راكبا ولو بالإيماء، دون اشتراط ركوع أو سجود أو اتجاه إلى قبلة، وفي هذا يقول القرآن: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالا أو ركبانا).

هذا إلى أن المسلم مأمور بذكر الله تعالى في كل أحيانه، وعلى كل أحواله، مسافرا أو مقيما، صحيحا أو سقيما، قائما أو قاعدا أو على جنب. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا). غير الأذكار التي وردت بأسبابها ومناسباتها الخاصة، وقد ألفت في ذلك كتب خاصة.

والمسلم مطالب بعبادة الله تعالى مادام فيه عرق ينبض، ونفس يتردد، حتى يوافيه الموت، وينتهي أجله المحدود: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) واليقين هنا الموت، كما في قوله تعالى على لسان الكفار يوم القيامة: (وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين).

٥. اليسر والسعة

والخصيصة الخامسة هي: اليسر والسعة.

فالحياة الروحية في الإسلام ـ برغم امتدادها وشمولها واستمرارها ـ حياة سهلة ميسرة، لا تكلف الإنسان شططا، ولا ترهقه عسرا، ولا تحمله من الآصار والأغلال ما يقصم ظهره، فهو غير مكلف إلا بما في وسعه، ولا مطالب إلا بما يستطيعه ويقدر عليه دون مشقة شديدة.

ولا غرو إن وجدنا القرآن ينفي الحرج عن هذا الدين نفيا كليا، فيقول: (وما جعل عليكم في الدين من حرج).

ويقول في ختام آية الطهارة وشرعية التيمم: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).

وفي ختام آية الصوم، وما ذكر فيها من الرخصة للمريض والمسافر من الفطر والقضاء، يقول: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر).

ويذكر القرآن صفة النبي صلى الله عليه وسلم، عند أهل الكتاب: (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)، فهذا هو عنوان رسالته عند أهل الكتاب، وهو ناطق بما تحمله من السعة والتيسير، ورفع آصار التكاليف الثقيلة التي كانت على من قبلنا، ولهذا علم الله المؤمنين أن يقولوا في دعائهم: (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به). وقد ورد في الصحيحين: أن الله استجاب لهم هذا الدعاء.

ومن ثم وجدنا الحياة الروحية في الإسلام تتسع لكل مراتب الناس ودرجاتهم: الدنيا والوسطى والعليا، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير).

فهناك من يكتفي بأداء الفرائض، وقد يقصر فيها، ويقتصر على ترك المحرمات وقد يقع فيها، وهو الظالم لنفسه.

وهناك من يلتزم بأداء الفرائض ولا يقصر فيها، ويلتزم بترك المحرمات ولا يتهاون في الوقوع في شيء منها، وهو المقتصد.

وهناك من لا يكفيه ترك المحرمات، بل يتقي الشبهات استبراء لدينه وعرضه، بل يرتقي فيدع المكروهات، ثم يرتقي فيدع ما لا بأس به حذرا بما به بأس.

وفي جانب المأمورات لا يكفيه أداء الفرائض، ولا يشبع نهمه، فهو يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه، كما جاء في الحديث القدسي: "ما تقرب إلي عبدي بأفضل مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه".

فإذا كانت الفرائض توصل صاحبها إلى منزلة "القرب" من الله، فإن النوافل ترقى به إلى منزلة "الحب" من الله تعالى، وهي منزلة السابق بالخيرات بإذن الله.

لقد وسعت الحياة الروحية الإسلامية الأعرابي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن فرائض الإسلام، فعرفه إياها: من الصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وصوم رمضان، وهو يسأل في كل منها: هل علي غيرها؟ قال: "لا إلا أن تطوع"، ثم قال في النهاية بكل صراحة: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفلح إن صدق" أو "دخل الجنة إن صدق".

ووسعت ـ مع هذا الأعرابي ـ العباد الزهاد من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعلي وأبي ذر وأبي الدرداء، وسلمان، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وتتسع الحياة الروحية في الإسلام للعصاة التائبين، ولا تغلق في وجوههم باب الرحمة، مهما تكن جرائمهم، وإسرافهم على أنفسهم، وفي هذا يقول

القرآن: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم).

فانظر كيف أمر الله رسوله أن يناديهم بهذا النداء اللطيف برغم معصيتهم وإسرافهم على أنفسهم: (يا عبادي) ليشعرهم بأن صلتهم بربهم لم تنقطع وأنهم ـ برغم ما ظلموا وأسرفوا ـ عباده، الذين لا يجوز لهم أن يقنطوا من رحمته أو ييئسوا من روحه، فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون.

وقد ذكر الله قوما أشركوا وقتلوا وزنوا ثم تابوا فتاب الله عليهم: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما).

وقرأ الإمام الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى في سورة البروج: (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) فقال معجبا من عظيم فضل الله تعالى وسعة عفوه ورحمته: قتلوا أولياءه، ثم لم يؤئسهم من التوبة!

وفي قصة المرأة الغامدية التي اقترفت كبيرة الزنى وهي محصنة وأصرت أن تتطهر بإقامة حد الله عليها، مهما تكن شدته، قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم".

٦. التوازن والاعتدال

والخصيصة السادسة لهذه الحياة الربانية هي: التوازن والاعتدال.

فالحياة الروحية في الإسلام ـ كما شرعها الله ورسوله ـ حياة معتدلة، متوازنة ومتناسقة مع جوانب الحياة المادية الأخرى، فلا يقبل فيها التنطع، ولا الغلو، الذي يجوز به المسلم على نفسه، وعلى حقوق الآخرين.

وهذا العنصر مكمل لعنصر اليسر والسهولة، الذي تحدثنا عنه، بل هو لازم من لوازمه، فإن المكلف الذي يخرج عن حد الوسطية والاعتدال، يدخل ـ لا محالة ـ في دائرة العسر والحرج.

لم يطلب الإسلام من المسلم أن يعتزل الناس والحياة، ليتعبد الله في صومعة أو يترهب في دير، بل أنكر على الذين ابتدعوا الرهبانية من عند أنفسهم، ثم لم يرعوها حق رعايتها.

وأنكر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، على من غلا من أصحابه في العبادة أو الزهد، مبينا لهم طريق الاعتدال، ومنهج التوازن، وهو طريقه ومنهجه صلى الله عليه وسلم، أي سنته التي يجب اتباعها، ولا يجوز رفضها، ولهذا قال للثلاثة الذين سألوا عن عبادته من أزواجه، فلما عرفوها تقالوها (عددها قليلة) وقالوا: أين نحن من رسول الله، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ وقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر، ولا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أرقد، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم بمقالتهم فجمعهم وخطب فيهم قائلا: "إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

إن الحياة الروحية الإسلامية لا تقتضي من المسلم أن يديم صيام النهار، وقيام الليل، وبذلك يجور على حق بدنه في الراحة، وحق عينه في النوم، وحق أهله في المؤانسة، وحق مجتمعه في المعونة، وهذا ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام عبدالله بن عمرو، حين تفرغ للصيام والقيام والتلاوة، وغفل عن حق نفسه، وحق زوجه، وحق زواره، فأمره النبي

بالاعتدال في ذلك قائلا: "فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا".

والحياة الروحية في الإسلام لا تستوجب من المسلم أن يحرم على نفسه طيبات الحياة الدنيا، كما صنعت المانوية في فارس، البرهمية في الهند، والبوذية في الصين، والرواقية في اليونان، والرهبانية في الديانة النصرانية.

والقرآن الكريم في غير موضع منه، شدد الإنكار على الذين حرموا طيبات ما أحل الله، وبين لهم أن الله تعالى خلق لهم ما في الأرض جميعا، وما كان سبحانه ليخلقها لهم، ثم يحرمها عليهم!

كل ما طلبه منهم أن يتناولوها باعتدال، بلا إسراف ولا تقتير، وألا يعتدوا فيها على حق أحد، وأن يشكروا نعمة الله فيها، بالاستعانة بها على طاعته وعدم استخدامها في معصيته، وإفساد أرضه.

يقول تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون).

ويقول: (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون)، (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين).

ويقول: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به تؤمنون).

فلا حرج على المسلم أن يستمتع ـ وهو في قمة ارتقائه الروحي ـ بطيبات المأكل والمشرب، وطيبات الملبس والزينة، وطيبات المسكن والمأوى، وطيبات الحياة الزوجية، وطيبات اللهو والترويح.

٧. التنوع

ومن خصائص الحياة الروحية في الإسلام: التنوع، فالمسلم الذي يعبد ربه ويتقرب إليه، ويغذي روحه بحبه، وقلبه بقربه، وعقله بمعرفته سبحانه، لا يحبس نفسه على نوع معين من التعبد أو الجهاد الروحي.

إن أمامه فرصا جمة، ومجالات رحبة، يصول فيها ويجول، ويجد كل إنسان فيها ما يشغل طاقته، ويشبع نهمه، وينقع غلته.

فقد نوع الإسلام في مطالبه الروحية من الإنسان المؤمن ما بين قول وعمل، وفعل وترك، وإلزام وتطوع، وعمل جارحة وعمل قلب، وما بين ليل ونهار، وسر وعلانية.

من عبادات الإسلام ما هو قولي كالذكر وتلاوة القرآن، وما هو فعلي كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وما هو تركي كالصيام الذي هو إمساك وحرمان.

ومنها ما هو بدني خالص كالصلاة والصيام والجهاد بالنفس، وما هو مالي خالص كالزكاة والصدقات والجهاد بالمال.

وما هو جامع بينهما كالحج والعمرة، والجهاد بالنفس والمال معا.

ومنها ما هو إيجاب، كفعل المأمورات، فرائض لازمة أو نوافل مستحبة.

ولا ريب أن الفرائض مقدمة على النوافل، ولا يقبل الله النافلة حتى تؤدى الفريضة، والمحافظة على أداء الفرائض تفضي بالإنسان إلى منزلة "التقرب" من الله تعالى، والمحافظة على النوافل ترقى به إلى منزلة "الحب" لله تعالى.

وفي هذا جاء الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه: "ما تقرب إلي عبد بأفضل مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها.."

ومنها: ما هو سلب مثل ترك المنهيات، محرمات كانت أو مكروهات.

وأول ما يجب اجتنابه ـ بعد الشرك ـ هو الكبائر، ثم يرتقي المرء فيجتنب صغائر المحرمات، ثم يتقي الشبهات، استبراء لدينه وعرضه، ثم يرتقي فيجتنب المكروهات ولو كانت كراهتها تنزيهية، ثم يزداد ارتقاء فيتقي بعض الحلال، خشية أن يجر إلى المكروه، فالشبهة، فالحرام، كما في الحديث: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس".

وهذا الجانب التركي أو السلبي أمر مهم، وهو بمثابة التخلية قبل التحلية، أو إزالة الأنقاض قبل البناء، وفي الحديث: "اتق المحارم تكن أعبد الناس".

ومن الأعمال الروحية ما هو مختص بعضو واحد، كاللسان، الذي يقوم وحده بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار والتلاوة والصلاة على النبي، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومثل اليد التي يكتب بها المسلم العلم النافع، ويصافح بها المؤمنين، ويعمل بها في كسب العيش الحلال: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده".

ومثل الرجل التي يمشي بها إلى بيوت الله، وإلى صلة الأرحام، وألوان الطاعات المختلفة، وكذلك سائر الجوارح.

ومن الأعمال الروحية ما هو مختص بالعقل، مثل التفكر في مخلوقات الله تعالى وآلائه، ومنها: الإنسان نفسه: (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم، أفلا تبصرون).

ومثل ذلك: التدبر لكتاب الله: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب).

وكذلك التفكر في طلب العلم، وفهمه وهضمه، وحل معضلاته.

ومنها ما هو من أعمال القلب مثل: الإخلاص، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتوكل، والزهد.. وغيرها من مقامات الصالحين.

ومن الضروري أن يعرف أن الأعمال كلها لا تقبل عند الله إلا بعمل قلبي أساسي وهو النية المجردة لله تعالى، بأن يؤدى العمل خالصا له، وابتغاء وجهه ومرضاته، كما قال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء).

ومع هذا التنوع الرحب في الأعمال، فهي ليست في درجة واحدة، فهي متفاضلة تفاضلا كبيرا، فالنوافل دون الفرائض، وفرائض الكفاية دون فرائض العين، وفرائض العين المتعلقة بحق الفرد، دون الفرائض المتعلقة بحق الجماعة.

والأعمال المقصور نفعها على صاحبها مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة، ليست كالأعمال التي يتعدى نفعها إلى الغير، وكلما اتسعت دائرة المنفعة بالفعل كانت قيمته أرفع ومثوبته أكبر.

ولهذا كان الجهاد في سبيل الله "ذروة سنام الإسلام" لما وراءه من درء الخطر عن أمة الإسلام وإعلاء لكلمة الله، وحماية لدعوة الله، ومن هنا كانت "الشهادة في سبيل الله" أعلى وأفضل ما يتمناه مسلم لنفسه، فعن سعد بن أبي وقاص: أن رجلا جاء إلى الصلاة والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فقال حين انتهى إلى الصف: اللهم آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين! فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة، قال: "من المتكلم آنفا؟" فقال الرجل: أنا يا رسول الله. قال: "إذن يعقر جوادك وتستشهد [في سبيل الله]".

وقد رأينا فقيها محدثا مجاهدا كبيرا مثل الإمام عبدالله بن المبارك يكتب إلى صديقه وأخيه في الله العابد الزاهد الرباني: الفضيل بن عياض، وهو أرض

الرباط والجهاد، والفضيل في رحاب الحرمين ينتقل بين مكة والمدينة عابدا متبتلا، فأرسل إليه بقوله:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب!

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

إن ساحة العمل الروحي فسيحة، وأنواعها كثيرة، ولكن المؤمن البصير هو الذي يتخير منها ما يناسب حاله.

فلا ينبغي للغني أن يجعل أكبر همه في التعبد لله تعالى بصيام الاثنين والخميس، أو بصيام داود عليه السلام الذي كان يصوم يوما ويفطر يوما، غافلا عن أن العبادة اللائقة به قبل كل عبادة هي إنفاق المال في سبيل الله.

ولا ينبغي للطبيب أن يتعبد لله بالوعظ والإرشاد، وحوله من مرضى المسلمين من يحتاج إلى من يعالجه من أشد الأمراض فتكا، ومن يحرره من ربقة الأطباء المتاجرين بأسقام البشر، والمستغلين لضرورات الخلق.

ولا ينبغي للإمام أو الحاكم أن يتعبد لله بالحج والعمرة كل عام، وهو مهمل لأمر رعيته، غافل عن إعطاء كل ذي حق حقه، وعن تأديب الفجار والمتعدين لحدود الله.

وهكذا يجب أن نعلم أن أفضل العبادة بالنسبة لكل إنسان ما كان أليق بحاله وألصق بمقدرته ونعم الله تعالى عليه.

الباب الثاني

الرسول هو المثل الأعلى للحياة المتوازنة المتكاملة

نعمتان عظميان

من فضل الله على المسلمين، وتمام نعمته عليهم: نعمتان عظيمتان، تميزت بهما هذه الأمة الخاتمة: (يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم).

نعمة خلود القرآن

النعمة الأولى: هي خلود مصادر هذا الدين، وبقاؤها محفوظة بحفظ الله لها، فإن هذه الأمة هي الأمة الأخيرة، التي حملها الله آخر الرسالات، فليس بعد نبيها نبي، ولا بعد قرآنها كتاب، ولا بعد دينها شريعة، ولهذا لم يكل حفظ كتابها إلى أهلها كالكتب السابقة، بل تكفل بحفظه بنفسه، وقال في ذلك: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، والقرآن هو المصدر الأول لهذه الملة، والمنبع الأول للعقيدة والشريعة والسلوك.

ولقد صدق الواقع التاريخي هذا الوعد الإلهي أعظم تصديق، فقد مضت أربعة عشر قرنا أو تزيد على نزول هذا القرآن، وهو هو، كما أنزله الله، وكما تلاه رسوله على أصحابه، وكما كتب في عهد عثمان رضي الله عنه، تتناقله الأجيال، محفوظا في الصدور، متلو بالألسنة، مكتوبا في المصاحف.

ولا يوجد كتاب يحفظه ـ عن ظهر قلب ـ عشرات الألوف، ومئات الألوف من أبنائه، إلا القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وحفظ القرآن ـ كما نبه الإمام الشاطبي رحمه الله ـ يتضمن حفظ السنة كذلك، لأن السنة هي البيان النظري والعملي للقرآن، لأن حفظ المبين يتضمن حفظ البيان معه.

نعمة السـيرة النبوية

والنعمة الثانية: هي السـيرة النبوية العاطرة، وهي سـيرة متميزة لها خصائصها التي بينها المحققون من العلماء، فهي سيرة علمية مدونة، وسـيرة تاريخية ثابتة، وسـيرة مكتملة الحلقات، من الولادة إلى الوفاة، وهي سـيرة شـاملة جامعة، تجسد حياة النبي صلى الله عليه وسـلم في وقائع وأحداث، ناطقة معبرة، هذه الحياة المتكاملة المتوازنة، التي نجد فيها الإسـلام حيا، والقرآن مفسرا، والقيم الإسـلامية تسعى بين الناس على قدمين، هذه الحياة هي التطبيق العملي للقرآن الكريم، كما قالت عائشـة وقد سـئلت عن خلق رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، فقالت: "خلقه كان القرآن".

هذه الحياة هي التي يجد كل مسـلم فيها أسـوته المثلى، ومثله الأعلى، فقد أدبه ربه فأحسـن تأديبه، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، وامتن به على المؤمنين، إذ بعثه رسـولا منهم (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

يقول الله تعالى: (لقد كان لكم في رسـول الله أسـوة حسـنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا).

ولا يوجد عند اليهود ولا النصارى ـ ولا عند غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى ـ مثل هذه السـيرة الحية النابضة، الشـاملة لكل مراحل الحياة، وكل جوانب الحياة، كما تصور ذلك كتب الشـمائل النبوية، وكتب "الهدي النبوي": في المأكل والمشـرب، في الملبس والزينة، في النوم واليقظة، في الحضر والسـفر، في الضحك والبكاء، في الجد واللهو، في العبادة والمعاملة، في الدين والدنيا، في السـلم والحرب، في التعامل مع الأقارب والأباعد، مع الأنصار والخصوم، حتى النواحي التي يسـميها الناس "خاصة" في معاشـرة الزوجات، كلها مروية محفوظة في هذه السـيرة الكاملة.

المثل الأعلى للحياة المتوازنة

والحق أن المثل التطبيقي الأعلى للتكامل وللتوازن بين المثال والواقع، بين القلب والعقل، بين الإيمان والعلم، بين الروح والمادة، بين الفردية والجماعية، بين حق الرب وحظ النفس. وإعطاء كل منها حقه بلا طغيان ولا إخسار ـ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

الرسول العابد الزاهد

فنراه في مجال العباد لربه، العابد الأول، الذي كانت قرة عينه في الصلاة، وكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ويبكي حتى تبلل دموعه لحيته، وتعجب زوجه عائشة من شدة تعبده وبكائه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيقول لها: "أفلا أكون عبدا شكورا".

وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع غالبا، وأحيانا يديم الصيام حتى يظن من حوله أنه سيصوم الدهر كله، وأحيانا يواصل الليل بالنهار في الصيام، فيمضي يومين أو أكثر لا يتناول طعاما، بعد الغروب، وهو ما نهى عنه أصحابه ولهذا قالوا له: أتنهانا عن الوصال وتواصل؟ فقال: "وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني"، فكانت من خصوصياته صلى الله عليه وسلم.

وكان دائم الذكر لله تعالى في كل أحواله: وعلى كل أحيانه، بقلبه ولسانه. وأذكاره وأدعيته ومناجاته لربه، يتجلى فيها أغنى قيم الصدق والإخلاص لله تعالى، والعبودية المتجردة لربها، كما أنها تمثل أروع المعاني، وأوضح الطموحات التي ينبغي أن ينشدها الإنسان الرباني لنفسه، ولمن يحب مصوغة في أحلى القوالب البلاغية، وأعذب الأساليب البيانية، التي تهز الكينونة البشرية من أعماقها، وهي وحدها مدرسة روحية فذة.

وقد حفلت بها كتب الحديث والسيرة، وألفت فيها كتب خاصة، قديما وحديثا، لعل أحدثها كتاب شيخنا الشيخ محمد الغزالي "فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء".

وكان صلى الله عليه وسلم، برغم تعبده لربه، واشتغاله بذكره، وقيامه الدائم بالدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله، دائم الخشية له سبحانه، كثير الاستغفار، كثير التوبة، وهذا من كمال عبوديته، وعظم مقام الألوهية عنده، وفي هذا كان يقول: "إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة"، "يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله عز وجل في اليوم مائة مرة".

وكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا، وأرضاهم باليسير منها، مع ما فتح الله له من الفتوح، وأفاء عليه من الغنائم، وبعد أن أصبح سيد الجزيرة.. ولكنه لقي ربه ولم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متوالية، وكان الشهر يمر تلو الشهر ولا يوقد في بيته نار، إنما عيشه على الأسودين: التمر والماء.. وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبيه.. ورآه عمر بن الخطاب يوما كذلك، فبكى توجعا له وإشفاقا عليه، واقترح عليه بعضهم أن يهيئوا له فراشا ألين من هذا، فقال لهم: "ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها"!

الرسول والإنسان

ولكنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الروحانية العالية، في ذكره وشكره وحسن عبادته لربه، وفي زهادته في دنيا الناس، وعيشه فيها بشعور الغريب، وعابر السبيل!.. لم يغفل الجوانب الأخرى بما تفرضه من أعباء، وما تمثله من مطالب، لم ينس أنه إنسان وزوج وأب وجد، وقريب، وجار، وصديق، ورئيس، وقائد.. وأن كل علاقة من هذه لها حقوقها.

ولهذا رأيناه إنسانا يرضى كما يرضى البشر، ويغضب كما يغضب البشر، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون.

ولكنه إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا فرح لم يفرح بغير الحق، وإذا حزن لم يخرجه حزنه عن الصبر والرضا، ويشارك أصحابه في مسراتهم، ولا يخرجه ذلك عن الوقار.

ويضحكه بعض أصحابه فيضحك، ويمزح أحيانا، ولكن لا يقول إلا حقا، ويأذن للحبشة أن يرقصوا بحرابهم في مسجده، ويعرف طبيعة الأنصار، فيقول في عرس لأحدهم: "أما كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو" ويسمح لجاريتين أن تغنيا في بيته في يوم عيد "حتى يعلم اليهود أن في ديننا فسحة، وأنى بعثت بحنيفية سمحة".

الزوج المثالي

رأيناه زوجا يحسن عشرة أزواجه، ويعدل بينهن فيما يقدر عليه، ويطيب أنفسهن، ويصالح بينهن، ويقدر الظروف الخاصة لكل منهن، ويستمع أحيانا إلى قصصهن وإن طالت، كما في حديث أم زرع المشهور، وبرغم همومه ومشاغله التي تنوء بها الجبال، يداعب ويمازح، كما رأيناه يسابق عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها مرة، ويسبقها أخرى، فيقول لها: "هذه بتلك".

الأب والجد

رأيناه أبا يحب أبناءه وبناته، ويحرص على كل خير لهم في الدنيا والآخرة، مات ابنه إبراهيم، فحزن عليه، ودمعت عيناه، ولم يجد في ذلك ما ينافي الصبر والرضا، بل قال: "تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون".

وحين أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتزوج على فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ابنة أبي جهل لعنه الله، غضب وقال: "إن فاطمة بضعة مني،

وأنا أتخوف أن تفتن في دينها، وإني لست أحرم حلالا، ولا أحل حراما، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبدا".

رأيناه جدا يلاعب سبطيه: الحسن والحسين، ويوطئ لهما ظهره ليركباه، بأبي هو وأمي، ويركب أحدهما على ظهره الشريف مرة وهو يصلي فيطيل الصلاة، حتى ظن الصحابة الظنون، فلما فرغ وسلم، سألوه عن سر إطالة سجوده، فقال: "إن ابني ارتحلني (أي اتخذني راحلة وركوبة!)، فكرهت أن أعجله". أي أنه لم يشأ أن يقطع على الصبي لذته في امتطاء ظهر جده.

ويقول عن الحسن والحسين: "إن ابني هذين ريحانتاي من الدنيا".

راعي حقوق الرحم والجوار والصداقة

رأيناه يرعى حق الرحم والقرابة، ولو كان أهلها مشركين، ويقول لقريش: "إن لكم رحما أبلها ببلالها"، وحين تمكن منهم يوم الفتح بعد طول ما جرعوه الصاب والعلقم، قال لهم في تسامح القوي: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، بل كان يكرم أقارب أبيه من بني النجار، وأقارب أمه من بني زهرة، مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي عرف بأنه خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن أخا لأمه، ولكن من بني عمومتها.

رأيناه يرعى حق الجار، وإن ظلم وجار، وإن كان يهوديا من أهل الكتاب، ويقول في ذلك: "مازال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه".

رأيناه صديقا، يرعى حقوق الصداقة والصحبة، ولهذا غضب حين أغضب بعضهم أبا بكر، فقال: "اتركوا لي صاحبي.." وقال: "لو كنت متخذا من أمتي خليلا دون ربي، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخي وصاحبي".

وكان أوفى الناس لأصحابه، ولكل من تربطه به أو بأهل بيته صلة، حتى كان يكرم بعض العجائز، ويبش لهن، ويهدي إليهن، فسئل في ذلك، فقال: "إن هذه كانت صديقة خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان"!.

رئيس الدولة

رأيناه رئيسا لدولة جديدة، تحيط بها العداوات منكل جانب: وثنية ويهودية ونصرانية، فلم يشغله هم الجهاد والإعداد لمقاومة أعدائها، عن العناية بالشئون الداخلية لأهلها، من بناء المسجد للصلاة، إلى إقامة السوق للتجارة.. ومن إقامة العلاقات السياسية بين الطوائف التي تسكن المدينة وضواحيها، وهي دار الإسلام في ذلك الوقت، على أساس واضح مكتوب في وثيقة دستورية معروفة، إلى العناية بأمر هرة حبستها امرأة حتى ماتت جوعا، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.. ومن لقاء الوفود من أنحاء الجزيرة، وإرسال الرسل إلى ملوك الأرض المعروفين، إلى الاهتمام بأمر أمة تأخذ بيده، وتمضي في طرقات المدينة، فلا يدع يده من يدها (توضعا وحياء منه) حتى تقضي حاجتها.

الرسول القائد

رأيناه قائدا يخطط للمعارك قبل وقوعها، ويبعث الطلائع والعيون لاستطلاع أخبار العدو، ويقوم بعمل أول إحصاء للقوة الضاربة عنده، حتى يكون تخطيطه على أساس علمي مكين، ويحث على التدريب واستمراره، فهو دعامة القوة العسكرية: "ألا إن القوة الرمي"، "من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا" ـ أو "فقد عصى" .. وهو مع قوة توكله على الله تعالى ـ يلبس للحرب لبوسها، حتى إنه في إحدى المعارك ظاهر بين درعين، ويعلم أصحابه أن الحرب خدعة، وأن للعوامل النفسية أثرها في كسب المعارك، فلا بد من العمل على تخذيل الأعداء، وتفريق كلمتهم.

وهو يعتمد ـ بعد الله تعالى ـ على حسن التخطيط، والتنظيم، والإعداد، و"التكتيك" حتى إنه ليفاجئ أعداءه بخطط لم يعهدوها، فيربكهم، ويعرف قدرات أصحابه، فيضع كلا في موضعه المناسب.

ولا غرو أنه القائد الذي رأينا كبار القواد ـ مثل أبي عبيدة وسعد وخالد وعمرو وغيرهم ـ تلاميذ بين يديه.

العامل المتوكل

رأيناه يراعي سنن الله ويأخذ بالأسباب، ويعد العدة، ويتوقى الخطر، ويأمر بأخذ الحذر، ويعمل بالإحصاء، ويخطط للمستقبل، ويرتب ويفكر قدر ما يستطيع البشر، ولكنه لا يغفل أبدا عن التوكل على الله تعالى، ولا ينسى أن الأمر كله بيده، وخصوصا ساعة الشدائد، وحصار الأزمات، فهنا تراه أقوى ما يكون ثقة بالله، واعتصاما به، وفرارا إليه.

فقد رأيناه خطط ورتب ونظم كل ما يتعلق بهجرته إلى المدينة، فلما وقف المشركون الذين يطاردونه على باب الغار الذي يختبئ فيه، قال في ثقة ويقين: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما"؟ (لا تحزن إن الله معنا).

القائم بعمارة الأرض المستمتع بطيباتها

ومن ناحية أخرى نجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع إقباله بكليته على الآخرة، وإعراضه عن الدنيا وزينتها، وتصويره الدنيا بالنسبة للآخرة، كما يجعل الإنسان إصبعه في اليم: "فلينظر بماذا يرجع؟" ـ لم يعش في الدنيا عيشة الرهبان الرافضين لها، المعادين لكل ما فيها، بل كان يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الإنسان مستخلف فيها، وأن له فيها مستقرا ومتاعا إلى حين، وأن عمارة الأرض من مقاصد التكليف، وأن هذه العمارة ـ المتمثلة في الزراعة، والغرس، والصناعة، والاحتراف، والتجارة وغيرها ـ تعتبر عبادة لله، إذا صحت فيها النية، وأديت على الوجه المطلوب، بلا خيانة ولا غش ولا إهمال، ولهذا أبقى أصحابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حرفهم، ولم يخرج واحدا منهم عن حرفته، ليتفرغ للعبادة أو لغيرها، إنما دعاهم أن يتقربوا إلى الله بإحسان أعمالهم: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"، "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

كما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يرفض طيبات الدنيا إذا تيسرت له، بل إذا وجدها تناولها وحمد الله تعالى، وإذا لم يجدها لم يتكلفها، ولم يحزن على فقدها.

كان يعجبه من الطعام اللحم، ويعجبه منه لحم الذراع، ويعجبه من الشراب اللبن، ويقول: "من سقاه الله لبنا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه"، وكان يستعذب له الماء، ويوضع فيه بعض التمرات للتخفيف من ملوحته.

وكان يلبس من الثياب ما تيسر، لا يلتزم زيا أو هيئة معينة، ويختص بعض الحلل للجمعة وللعيدين، وكذلك للقاء الوفود، وكان يرجل شعره، ويتطيب، ويحب الطيب، وينظر في المرآة، ويقول: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي"، ويوصي أصحابه بالنظافة والتجمل، حتى يكون أحدهم حسن المظهر، طيب الرائحة، ولا يحب أن يدخل عليه أحدهم ثائر الرأس كأنه شيطان، ويقول: "من كان له شعر فليكرمه"، ويوصي بنظافة أشياء معينة في الجسم مثل الأسنان، ولهذا حض على السواك: "السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب"، كما أكد العناية بالجسم كله: "حق لله على كل مسلم في كل سبعة أيام يوم يغسل فيه رأسه وجسده"، وضرب لأصحابه المثل في ذلك كله، وكان نعم الأسوة لهم، وعلمهم أن الدين لا يضيق بالتجمل، "إن الله جميل يحب الجمال".

رأيناه يتداوى، ويأمر أصحابه بالتداوي، ويعلمهم أن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، ويصف بعض الأدوية لبعض الأمراض، حسبما تعمله من البيئة غالبا، ولكنه بجوار هذا استخدم الأدوية الروحية من الرقى والدعاء، فرقى نفسه وغيره، وعلمهم كيف تكون الرقية، محذرا من الرقى الشركية.

والواقع أن سيرته صلى الله عليه وسلم ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ سيرة جامعة شاملة، متوازنة، يجد فيها كل طالب أسوة مكانا للاتساء بها، والاقتداء بهداها.

فالفقير يجد فيها مجالا للاقتداء، والاهتداء، يوم كان عليه السلام يشد الحجر على بطنه من الجوع، والغني يجد فيها قدوته يوم وسع الله عليه، ووضع بين يديه الأموال، منها ما هو للدولة، وما هو خاص له.

والحاكم والمحكوم، والمحارب والمسالم، والعزب والمتزوج، وذو الزوجة الواحدة، وذو الزوجات المتعددات، والأب والجد، والشاب والشيخ، والسليم والسقيم، والمقيم والمسافر، والمعافى والمبتلى، وغير هؤلاء وهؤلاء، كلهم يجدون في حياته الخصبة، وفي سيرته الحافلة، وفي سنته الهادية، متسعا لهم، ليقتدوا منها، ويهتدوا بنورها.. في حالات الرخاء واليسر، وفي حالات الشدة والعسر، في حالات الانتصار، وفي حال الانكسار.

وعيب كثير من الفرق والطوائف من أهل الكلام والتصوف والفقه: أنهم يأخذون بجانب من سيرته أو سنته صلى الله عليه وسلم، ويغفلون جوانب أخرى، أو يضخمون ناحية على حساب نواح أخرى، ولو تأملوا وأنصفوا، وجمعوا الأمور بعضها إلى بعض، لوجدوا في هديه عليه الصلاة والسلام الشمول والتوازن، والاعتدال والتكامل، الذي يسع كثيرا مما يظن أنه متعارض، وما هو بمتعارض، وإنما أراد الله لرسوله أن يكون الأسوة العليا في كل أمر من الأمور.

كلمة بليغة لابن القيم

ويسرني أن أسجل هنا ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" حول هذا المعنى الكبير، فأفاض فيه على طريقته، وضرب الأمثلة، وذكر الأدلة، وأشبع القول بمناسبة احتجاج طائفة بسيرته وسنته عليه الصلاة والسلام على فضل الفقير الصابر، واحتجاج معارضيهم بهما أيضا على فضل الغني الشاكر.

يقول ابن القيم:

"وما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله صلى الله عليه وسلم في أعلاها، وخصه بذروه سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة

من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضا.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليه والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق، وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالي الله، احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئا لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوي والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر، فكان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا، وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر، وباع واشترى، واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام، احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء، ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به من أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة".

إلى أن قال: "والمقصود بهذا الفصل: أنه ليس الفقراء والصابرون، بأحق به ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بسنته، وأتبعهم لها".

الباب الثالث

العلم بداية الطريق

تمهيد

من المعروف لدى المسلمين بالتواتر: أن أول ما نزل من الوحي الإلهي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم هو: الآيات الأولى من سورة العلق التي لقنها أمين الوحي، والرسول الملكي جبريل عليه السلام، إلى الرسول البشري محمد عليه الصلاة والسلام في أول لقاء بينهما عند غار حراء.

كانت هذه الآيات هي قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

كان لأولية نزول هذه الآيات الكريمة دلالتها وإيحاؤها، فهي توحي بفضل العلم وتقديمه على غيره، فبه تبدأ الأمور، وتفتتح الأعمال، فقد أمرت الآيات بالقراءة مرتين: (اقرأ باسم ربك)، (اقرأ وربك الأكرم) والقراءة هي باب العلم ومفتاحه.

وقد نزل بعد ذلك قوله تعالى: (يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر).

فجاءت هذه الآيات آمرة بالعمل، سواء أكان عملا متعلقا بالناس: (قم فأنذر)، أم بالرب تعالى: (وربك فكبر)، أم بالنفس: (وثيابك فطهر)، وسواء أكان عملا متعلقا بالفعل كالأشياء المذكورة أم بالترك، مثل (والرجز فاهجر)، والمراد: سبب الرجز ـ وهو العذاب ـ والمراد: هجر المعصية، وكذلك (ولا تمنن تستكثر) ثم سياج ذلك كله، وهو الصبر لله تعالى: (ولربك فاصبر).

وبهذا فهمنا من القرآن: أن العلم مقدم على العمل، لأنه هو الذي يصحح العمل، ويرشد إلى شروطه وأركانه، ولهذا قيل: "العلم بغير عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون".

ولكننا نلاحظ أن القراءة التي أمر بها القرآن في آياته الأولى ليست مجرد قراءة، إنما هي قراءة باسم الله، باسم ربنا الخالق، ومعنى أنها باسمه سبحانه: أنها بإذنه وبأمره، وأنها موجهة إليه، موصولة به، فليست باسم صنم يعبد، ولا طاغوت يطاع، ولا بشر يعظم من دون الله، فهي قراءة مؤمنة بالله، خالصة له، مقيدة بأحكامه.

وهذا يوحي: أن العلم في الإسلام إنما هو علم في حضانة الإيمان، فالعلاقة بينهما علاقة التواصل والتلاحم، لا التقاطع والتنافر، علاقة التكامل، لا علاقة التعارض، وهذا ما سيظهر بجلاء في الصحائف التالية: أن العلم دليل الإيمان، كما أنه إمام العمل، والعمل تابعه.

لا عجب أن نبدأ ـ "العلم" في هذه السلسلة اهتداء بالقرآن العزيز، واقتداء بما فعله الإمام أبو حامد الغزالي، في كتابيه "الإحياء" و"المنهاج"، فقد بدأ كلا منهما بـ "العلم"، وحتى تكون دعوتنا إلى الله دعوة على بصيرة وبينة، كما قال الله عز وجل: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنزل من المشركين).

ونختم هذا التمهيد بهذا الدعاء المأثور:

"اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما. نحمدك اللهم على كل حال، ونعوذ بك من حال أهل النار".

فضل العقل في الإسلام

لا يوجد دين غير الإسلام كرم العقل والفكر وأشاد بأولى الألباب والنهى، ودعا إلى النظر والتفكر، وحرض على التعقل والتدبر، وقرأ الناس في كتابه: (أفلا تعقلون)، و(أفلا ينظرون)، و(لعلكم تعقلون)، و(لعلكم تتفكرون)، و(أو لم ينظروا)، و(أو لم يتفكروا)، و(لآيات لقوم يعقلون)، و(لآيات لقوم يتفكرون).

ومن أروع ما جاء في القرآن قوله: (قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا). ومعناه: أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلى الله الذي يؤمنون به، وبخالقيته للكون وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلى الحقيقة، بعيدا عن تأثير "العقل الجمعي"، وعن الخوف من الناس أو المجاملة لهم، كل فرد مع صديقه ممن يثق به، ويطمئن إليه، أو يفكر وحده، وهو معنى قوله: (مثنى وفرادى)، ثم يتفكروا في أمر النبوة، وسيهديهم فكرهم الحر إلى الحق.

وقد اعتبر علماؤه أن العقل مناط التكليف، ومحور الثواب والعقاب، كما قرروا أن العقل أساس النقل، إذ لو لم يثبت وجود الله بالعقل، ما ثبت الوحي، فالعقل هو الذي يثبت النبوة، ويثبت صدق النبي بالعقل، ما ثبت الوحي، فالعقل هو الذي يثبت النبوة، ويثبت صدق النبي عن طريق المعجزة الدالة على صدقه دلالة عقلية، ثم بعد ذلك يعزل العقل نفسه، ليتلقى عن الوحي الذي هو سلطة أعلى منه.

ومن هنا قرر المحققون من علماء الإسلام: أن الإيمان المقلد المطلق غير مقبول، لأنه لم يؤسس على برهان، ولم يقم على حجة بينة، بل على تقليد محض: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).

والقرآن يطالب كل ذي دعوى بإقامة البرهان على دعواه، وإلا اطرحت ورفضت، ولهذا قال في محاورة المشركين: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، (أم اتخذتم من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم).

وقال في محاجة أهل الكتاب: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

فالعقائد لابد أن تؤسس على البراهين اليقينية، لا على الظنون والأوهام. ولهذا عاب الله المشركين بقوله: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين)، (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظنون).

ليس في الإسلام إذن ما عرف في بعض الأديان الأخرى من اعتبار الإيمان شيئا خارج منطقة العقل ودائرة التفكير، وإنما يؤخذ بالتسليم المطلق، وإن لم يرتضه العقل، أو يسانده البرهان، حتى شاع عندهم مثل هذا القول: "اعتقد وأنت أعمى"! أو "أغمض عينيك ثم اتبعني"!

ويحرم على المسلم أن يتبع الظنون والأوهام، معطلا الأدوات التي وهبه الله إياها لتحصيل المعرفة الصحيحة، وهي: السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) قال العلماء في تفسير هذه الآية: إن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، وفي الصحيحين: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث" وفي سنن أبي داود وغيره: "بئس مطية الرجل: زعموا".

إن تعطيل السمع والبصر والفؤاد ينزل بالإنسان من أفق الإنسانية العاقلة إلى حضيض البهيمية الغافلة، بل يجعل الإنسان أضل سبيلا من الأنعام، لأنها لم تؤت ما أوتي من قوى التمييز والإدراك، فكان جديرا أن يكون من حطب جهنم: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون).

لقد عاب القرآن على المشركين اتباعهم للظن في تكوين العقائد التي لا يغني فيها إلا اليقين القائم على البصيرة والبرهان. وفي ذلك يخاطبهم فيقول في شأن آلهتهم: (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)، ويقول في هذا السياق نفسه: (وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا).

وعاب على أهل الكتاب في قضية قتل المسيح ما عابه على الوثنيين فقال: (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه).

ولا يحل لمسلم أن يأخذ فكرته عن الوجود: مبدئه ومنتهاه، وعلته وأسراره، إلا عن رب الوجود، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزل على رسوله، المؤيد بالآيات البينات، الدالة على صدق نبوته، القاطعة بصحة رسالته.

إن من أراد أن يعرف فكرة صحيحة كاملة عن دقائق جهاز ما، وعن الغاية من صنعه، فلابد أن يأخذها من صانعه نفسه، والله تعالى هو صانع هذا الكون، علويه وسفليه، بمن فيه وما فيه، وما نبصره وما لا نبصره، وهو وحده القادر على أن يمدنا بالحقائق الصادقة عن هذا الوجود وأسراره وغاياته: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

وكل النظريات والفلسفات التي زعمت أنها فسرت الوجود وخباياه، والحياة وأسرارها، إنما هي فروض ظنية يضرب بعضها بعضا، (وإن الظن لا يغني من الحق شيئا).

فضل العلم والعلماء

والقرآن الكريم أعظم كتاب أشاد بالعلم وأهله، ورفع قدر "أولى العلم" و"العالمين"، ونوه بمكانة "الذين أوتوا العلم"، كما بين أنه أنزل كتابه وفصل آياته (لقوم يعلمون)، كما بث آياته في الآفاق وفي الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون.

يقول تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط)، فانظر كيف بدأ الله تعالى بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأولى العلم، واستشهد بهم على أعظم قضايا الوجود، وهي قضية الوحدانية.

وقال تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، وهو استفهام إنكاري معناه نفي التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل، كما في قوله تعالى: (وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات).

فالجهل بمثابة العمى، والعلم بمثابة البصر، والجهل كالظلمة، والعلم كالنور، والجهل حرارة قاتلة، والعلم ظل ظليل، والجهل موت، والعلم حياة، ولا يمكن أن يستوي الضدان في هذا كله.

وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، أي لا يخشى الله إلا العلماء الذين يعرفون مقامه، ويقدرونه حق قدره، والعلم الحقيقي هو الذي يورث الخشية.

وقد جاءت هذه الآية ـ أو هذا الجزء من الآية ـ بعد أن ذكر الله سبحانه بعض آياته في خلقه: في السماء والماء والنبات والجبال، ومن الناس والدواب

والأنعام، مما يوحي بأن العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة والكون والأرض والنبات والإنسان والحيوان. اقرأ قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وقال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين).

والأوفق بـ "العالمين" هنا: أنهم العلماء بالظواهر الكونية في الفلك وفي الأرض، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان،أي علماء الكون، وعلماء الإنسان.

وقال تعالى: (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون). فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا: هم علماء الفلك والطبيعة الجوية، فهم أقدر الناس على معرفة أسرار الله تعالى واكتشاف سننه في جعل النجوم للاهتداء.

ومن هنا نرى أن العلم الذي أشاد به القرآن ليس مقصورا على علم الدين وحده، وإن كان علم الدين له الصدارة والأولوية، لأنه العلم الذي يتعلق بالمقاصد والغايات، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات، ولكنها مهمة أيضا لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالى.

وقال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون).

منزلة العلماء في حياة الأنبياء

ومن قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أن للعلم مكانا في كل منها، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

فآدم عليه السلام ـ أبو البشر ـ إنما فضله الله على الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنه المرشح الصالح للخلافة في الأرض، بسبب "العلم" الذي علمه

الله إياه، ولم يعلمه للملائكة، ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء ـ والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمى وخواصه ـ قالوا: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم).

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه ـ حين أكل من الشجرة المنهي عنها ـ بما تعلمه من الكلمات التي تلقاها من ربه: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم).

ونوح ـ شيخ المرسلين ـ نجد أثر العلم في حسن دعوته لقومه، وجداله لهم حتى أفحمهم. وقالوا: (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون).

وإبراهيم ـ خليل الرحمن ـ آتاه الله الحجة، فحاج نمروذ فأسكته، وحاج قومه فغلبهم، وقال لأبيه: (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا مستقيما).

وقال تعالى في شأنه: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء).

ويوسف لما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما، وعلمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى، وكان هذا العلم سببا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلا لتوليه خزائن الأرض: (قال اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ عليم)، فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لكل من يتولى منصبا قياديا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عاما، وتولى هو الإشراف على تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

وقال الله في شأن موسى: (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين).

ولما أعلم الله موسى أن هناك رجلا عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفرا طويلا لقي فيها النصب والعناء، وطلب إليه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله، وهو موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر على ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتى يبين هو له، وقبل موسى هذا الشرط: (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا، قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا).

وفي قصة داود وسليمان قال تعالى: (ولقد آتينا داود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين، وورث سليمان داود، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء).

ونجد علم سليمان يتجلى في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدل عليه بالعلم، وقال له: (أحطت بما لم تحط به).

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ، نجد أن الذي أحضر عرشها من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إليه طرفه إنما هو: (الذي عنده علم من الكتاب).

كما امتن الله على داود بتعليمه صناعة الدروع: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم).

وفي قصة طالوت بين الله تعالى أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية: (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم).

وقال عن المسيح عيسى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

وقال عن خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما).

السنة والعلم

وجاءت الأحاديث النبوية فأكدت ما جاء في القرآن من فضل العلم، ومنزلة العلماء، من ذلك ما رواه معاوية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما إلا سهل الله له به طريقا إلى الجنة".

وعنه مرفوعا: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

فمن خصائص العلم: أن نفعه مستمر، وأن أجره دائم، وأنه باق للإنسان حتى بعد موته، قال الحافظ النذري: "وناسخ العلم النافع له أجره وأجر من أقرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه والعمل به، لهذا الحديث وأمثاله، وناسخ غير النافع ـ مما يوجب الإثم ـ عليه وزره، ووزر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده، ما بقي خطه والعمل به".

وعن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء! وفض العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

قال الإمام الغزالي: ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة! ويعلق على استغفار من في السموات ومن في الأرض

للعالم فيقول: "وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له؟ فهو مشغول بنفسه (أي بعلمه)، وهم مشغولون بالاستغفار له"!

وعن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه، قال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط العلم (يعني أطلبه وأستخرجه)، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها، رضا بما يصنع".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، وعالما، ومتعلما".

والمراد بلعن الدنيا: ذمها، وهي ليست مذمومة لذاتها، فإنها مزرعة الآخرة، وهي دار الإيمان والعبادة والجهاد في سبيل الله، وإنما تذم من حيث أنها دار للكفر والشر وعبادة الطاغوت، ومن حيث أنها تشغل عن الله تعالى وعن الدار الآخرة. ولهذا استثنى الحديث من الذم كل ما يذكر الإنسان بربه، ويصله بحبله، من ذكر الله، وما يحبه ويرضاه، من العلم النافع والعمل الصالح، والمقصود بالعالم والمتعلم: من يجمع بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء الذين لا يعلمون، والذين يعلمون ولا يعملون.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع" والمراد بسبيل الله: هو الجهاد.

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من جاء إلى مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله"، لأن كلا من المتعلم والمجاهد يعمل لتكون كلمة الله هي العليا، هذا بقلمه، وهذا بسيفه.

كما حثت الأحاديث النبوية على إكرام أهل العلم وإعطائهم حقهم من الإجلال والتوقير، وحذرت من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم.

فعن جابر: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ـ يعني: في القبر ـ ثم يقول: "أيهما أكثر أخذا للقرآن"؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد.

وعن عبادة بن الصامت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا".

مكانة العلم لدى سلف الأمة

وقال علي كرم الله وجهه لكميل بن زياد: يا كميل، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق. وقد شرح ابن القيم هذه الكلمات ـ المقتبسة من مشكاة النبوة ـ شرحا مستفيضا في "مفتاح دار السعادة".

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك! وهذا ما عبر عنه الشاعر فقال:

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماء!

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين! وإنما لم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التي يتميز بها الإنسان عن البهيمة هي العقل، وهو إنما يظهر بالعلم.

وقال ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها!

وقال الحسن: يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء.

وقال في تفسير قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة، وفي الآخرة هي الجنة.

وقيل لحكيم: أي الأشياء تقتني؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك! يعني: العلم.

وقال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن المرء يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد الأنفاس.

وقال بعض السلف: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم.

الفصل الثاني - أثر العلم في الإيمان والسلوك

العلم والإيمان في رحاب الإسلام

إن أول آيات أنزلها الله من كتابه على رسوله، أشادت بالعلم والتعليم وأداة التعلم "القلم"، لأنها أمرت بالقراءة، والقراءة مفتاح العلم، يقول تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

هكذا كان أول أمر من الله في الإسلام: "اقرأ"، وقد كرره مرتين في هذه الآيات تأكيدا لأهميته، ولكنها ليست مجرد قراءة، ولكن قراءة باسم الرب الخالق، ومعنى أنها باسمه: أنها بإذنه وأمره ومباركته، فهي قراءة إيمانية. وهي تشير إلى أن العلم في الإسلام لابد أن يكون في حضانة الإيمان بالله، وبهذا يكون العلم أداة خير، لا معول هدم، يكون للتعمير لا للتدمير.

ولهذا رأينا سليمان عليه السلام حين جاءه عرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في لمح البصر أو هو أقرب، جاء به (الذي عنده علم من الكتاب)، كان موقفه موقف المؤمن الذي يعتبر العلم وثمراته نعمة من الله يجب أن تقابل بالشكر، يقول تعالى: (فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم).

وكذلك كان موقف ذي القرنين حين بنى سده العظيم، ليحجز شر يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، (قال هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقا).

العلم يهدي إلى الإيمان

فالعلم والإيمان في الإسلام يسيران جنبا إلى جنب، ولذا جمع القرآن بينهما في قوله تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث)، ومثل ذلك قوله: (يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات).

بل يرتب القرآن الإيمان على العلم، فالمرء يعلم فيؤمن، ومقتضاه أنه لا إيمان قبل العلم. يقول تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم).

وهكذا عطف القرآن هذه الثلاثة "العلم.. الإيمان.. الإخبات" بالفاء، التي تفيد الترتيب والتعقيب كما يقول علماء العربية، فإذا كان الإخبات ثمرة الإيمان، فإن الإيمان ثمرة العلم.

وفي هذا يقول القرآن أيضا: (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد).

وينوه القرآن بالذين "أوتوا العلم" بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن ويؤمنون به، ويتأثرون بما فيه: (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا مفعولا، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا).

ويقول عن القرآن أيضا: (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم).

العلم إمام العمل

ومن فضائل العلم: أنه يسبق العلم، ويدل عليه، ويرشد إليه، وهذا ما ذكره الإمام البخاري في كتاب "العلم" من صحيحه، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد، وثنت بالاستغفار وهو عمل.

وفي حديث معاذ المشهور في فضل العلم الذي ذكره ابن عبد البر وغيره: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة".

وفيه قال: "وهو إمام، والعمل تابعه".

ومعنى هذا: "أن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له، ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم، ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان، وهو المحك.

قال تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور).

قال الفضيل بن عياض في تفسير "أحسن العمل" قال: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقد قال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه. وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرادا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة. وقد قال الله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين)، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك

العمل، وتقواه فيه: أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله.. والله أعلم.

ولهذا قال المحققون: إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل.. ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول".

قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة، وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا".

فمرتبة العلم من وجه: مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره، ومرتبته من وجه آخر مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية.

فضل العلم على العبادة

ومن فضائل العلم ما ثبت في الأحاديث: أنه أفضل من العبادة، وأن العالم مقدم على العابد .

ففي حديث أبي الدرداء المشهور: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب".

وكذلك جاء في حديث معاذ بن جبل.

وفي حديث أبي أمامة: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم".

وفي حديث حذيفة وسعد: "فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع".

وذلك لأن العلم يسبق العمل، ويدل عليه، ويرشد إليه، فهو دليل له من ناحية، وشرط لقبوله من ناحية أخرى، فلا عمل بلا علم، وقد يوجد علم بلا عمل، والمعنى: أنه كلما وجد العمل لزم وجود العلم، بخلاف عكسه، ولهذا قيل: العلم بدون عمل جنون، والعمل بدون علم لا يكون.

ومن ناحية أخرى فضل العلم على العبادة، لأن نفع العلم متعد، ونفع العبادة قاصر، فالعبادة إنما تنفع صاحبها، والعلم ينفع الكافة.

ثم إن نفع العبادة ـ غالبا ـ ينتهي بالفراغ منها، ولكن نفع العلم يبقى إلى ما شاء الله، ولهذا عد في الأمور الباقية للإنسان بعد موته، فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من أشياء معروفة منها: علم ينتفع به من بعده.

وعلى قدر المنتفعين بعلمه يكون أجره، فكلما اهتدى به مهتد إلى طريق الخير، واسترشد به مسترشد في معرفة الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، كان له أجره، كما جاء في الحديث: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله".

ولأن العلم إما فرض عين، وإما فرض كفاية، وكلاهما أفضل من الاشتغال بالنوافل.

ولأن العلم من صفات الله تعالى، والعمل من صفات المخلوقين، فهو هنا يتخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، إن صح التعبير، أو يتصف بصفة من صفاته، واسم من أسمائه الحسنى.

ولأن العلم هو الذي يكشف الغوامض من المسائل، ويفصل في دقائق الأمور، كما رأينا في حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل رجلا عابدا هو

أعبد أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: لا توبة لك، فقتله، وأكمل به المائة، ثم سأل رجلا عالما، هو أعلم أهل الأرض في زمنه: هل له من توبة؟ فقال له: نعم، وأمره أن ينتقل من القرية الظالمة الفاسدة إلى قرية أخرى صالحة.

ولأن العلم هو الذي يبين الحق من الباطل في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمسنون من المبتدع في العبادات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات، والمقبول من المردود في المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال.

وبدون العلم يمكن أن يعتقد المرء الباطل وهو يحسبه حقا، ويرتكب البدعة وهو يظنها سنة، ويتورط في الحرام وهو يتوهمه حلالا، ويسقط في حمأة الرذيلة وهو يتصورها فضيلة، ولهذا كان من الأدعية المأثورة: "اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه". حتى لا يكون المرء ممن (زين له سوء عمله فرآه حسنا).

وقد حذرت الأحاديث الصحاح من فئة من الناس "يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم"، ولكنهم "يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، ومعنى قوله: "لا يجاوز حناجرهم": أن القرآن لا تفقهه عقولهم وقلوبهم، لأنه مجرد ألفاظ وأصوات تخرج من حناجرهم، فآفتهم ليست في ضمائرهم ونياتهم، بل في عقولهم وأفهامهم! ولهذا وصفوا بأنهم: "يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام"! وهؤلاء هم الخوارج الذين حاربهم علي بن أبي طالب والصحابة معه. ولهذا جاء في حديث معاذ المشهور في فضل العلم: أنه إمام والعمل تابعه.

وذكر الإمام البخاري في كتاب "العلم" من صحيحه: أن العلم يسبق العمل، واستدل لذلك بالقرآن والحديث.

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح!

ومن المعروف: أن كثيرا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم.

فقال الشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم، وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه.

وكذلك قال سفيان الثوري، حكاه الحنفية عن أبي حنيفة.

وأما الإمام أحمد، فحكي عنه ثلاث روايات، إحداهن: أنه العلم. فإنه قيل له: أي شيء أحب إليك: أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعا؟ قال: نسخك تعلم به أمور دينك، فهو أحب إلي.. وذكر الخلال عنه في كتاب "العلم" نصوصا كثيرة في تفضيل العلم، ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب.

والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع، واحتج لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة"، وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة، فقال: "خير موضوع"، وبأنه أوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة، وكذلك قوله في الحديث الآخر: "عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة"، وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنه الجهاد، فإنه قال: "لا أعدل بالجهاد شيئا، ومن ذا يطيقه؟" ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

وأما مالك.. فقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إن أقواما ابتغوا العبادة، وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك.

قال مالك: وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب: أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا، فكتب إليه عمر: أن أفرض لهم من بيت المال.

فلما كان في العام الثاني كتب إليه: أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير ـ لأكثر من ذلك ـ فكتب إليه عمر: أن امحهم من الديوان، فإني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين، فيتأولوه على غير تأويله!

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة (يعني النافلة كما يدل السياق) فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته.

قال شيخنا: وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة على بعضها، وهي: الصلاة، والعلم، والجهاد، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة أقوام ينتقمون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر، لما أحببت البقاء.

فالأول: الجهاد. والثاني: قيام الليل، والثالث: مذاكرة العلم. فاجتمعت في الصحابة بكمالها، وتفرقت فيمن بعدهم.

وقد حكى ابن القيم ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فضل العلم خير من نفل العمل، وخير دينكم الورع". وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي رفعه نظر.

قال: "وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا فلابد منهما كالصوم والصلاة، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه، والعبادة يختص نفعها بصاحبها، ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته، والعبادة تنقطع عنه".

ومن وجوه فضل العلم على العبادة التي ذكرها العلامة ابن القيم في "المفتاح": أنه يدل صاحبه على العمل الأفضل عند الله، وإن كان أقل من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعبا ومعاناة، وهو أكثر مثوبة وأجرا! قال: واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى حيث قال: "أفضل الأعمال إيمان بالله، ثم الجهاد"، فالجهاد بذل النفس، وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال. والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا، ورب عمل فاضل، والمفضول أكثر مشقة منه.

واعتبر هذا بحال الصديق (أبي بكر رضي الله عنه) فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه، قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه! وهذا موضوع المثل المشهور:

من لي بمثل سيرك المدلل؟ تمشي رويدا وتجي في الأول!

العلم دليل السلوك

وليس العلم مطلوبا لمعرفة الأحكام الظاهرة في الفقه فقط، كما قد يظن الكثيرون، بل هو مطلوب لسلوك الطريق إلى الله أيضا، بل ربما كان طلبه هنا أشد وألزم، لدخول الأوهام والأهواء والتلبيسات على الإنسان في هذا الجانب أكثر من غيره.

نرى الإمام الغزالي في مقدمة كتاب "الإخلاص" من "الإحياء" بعد أن بين ضرورة تصحيح النية وإخلاص العبادة لله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) يقول رحمه الله:

"وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى: أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص".

ثم نرى الغزالي يعود فيتحدث عن أثر النية في أقسام الأعمال من طاعات ومعاص ومباحات، ويبدأ بعلاقتها بقسم المعاصي فيقول:

"اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول، وحركة وسكون، وجلب ودفع، وفكر وذكر ـ وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه ـ فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

"القسم الأول" المعاصي: وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالنيات". فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب. أو يطعم فقيرا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية. بل قصده الخير والشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا؟ هيهات! بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية

أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئا أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل، وهو كما قال، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟

وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به: العلم! ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام، ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه".

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس الحرام: تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مباراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى! وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال! يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى، ويتباعد عن التقوى، ويستجرى الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى. ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله، ومن مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه! ثم العجب من جهله حيث يقول: "إنما الأعمال بالنيات". وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير، وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو

العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه: وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق، وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى".

العلم والمال

لقد بين حديث النبي صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري ـ أن للعلم أثره في سلوك صاحبه، وقد قسم الناس إلى أصناف أربعة بالنظر إلى موقعهم من العلم والمال.

يقول الحديث: "إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل.. وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء!.. وعبد رزقه الله مالا، ولم يرزقه علما، يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل!.. وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا لعلمت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء".

قسم الحديث الناسوحظوظهم في الدنيا إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول ـ وهو أفضلهم ـ من أوتي علما ومالا، والمقصود بالعلم هنا: نور البصيرة، وحسن الإدراك، والمعرفة الراسخة، التي تضيء لصاحبها الطريق، وتبين له العواقب، فنفعه العلم بأن دله على أن المال وسيلة لا غاية، وأنه مستخلف فيه، وأن لله فيه حقا ثابتا، فاتقى فيه ربه، ووصل فيه رحمه،

فأحسن بذلك إلى نفسه، وأحسن إلى الناس بعلمه وماله، فهو كما قال الحديث: "بأفضل المنازل".

والصنف الثاني: يلي الأول في المرتبة، وهو: من أوتي علما، ولم يؤت مالا، فهو لم ينفق ولم يتصدق ولم يصل الرحم بالفعل، وإنما فعل ذلك بالنية التي علم الله صدقها منه. والنية ليست مجرد خاطرة طائرة تمر بالبال، كشرارة لامعة ثم تنطفئ، بل هي خط نفسي عميق، يجعل صاحبه يعيش بهذا الأمر، حالما به، راغبا فيه، حريصا عليه، فالنية هي عقد القلب على العمل، لهذا استوى في الأجر هو صاحب العمل ـ كما صرح الحديث: "فهما في الأجر سواء"، وإنما سبب ذلك هو علمه ومعرفته، مما يدل على أهمية المعرفة في السلوك الأخلاقي، فلا فضيلة بلا معرفة، كما لا عبادة بلا علم.

والصنف الثالث: من أوتي مالا، ولم يؤت علما، أي لم يؤت العلم النافع الذي يورث الخشية، وينير البصائر، ويحرك العزائم لفعل الخير، وإن كان صاحبه يحمل أرقى الشهادات، فهذا أسوأ الناس منزلة، كما جاء في نص الحديث: "فهذا بأخبث المنازل"، وإنما نزل به إلى هذا الدرك جهله وحرمانه من العلم، فلم يعلم الله في ماله حقا، ولم يصل فيه رحمه، ولم يحسن به إلى غيره، ولم يتق فيه ربه، فكان ماله وغناه طريقا إلى هلاكه، فلو عدمه لكان خيرا له، ولكنه للأسف، أعطي ما يتزود به للجنة، فكان زاده إلى النار.

والصنف الرابع والأخير: من لم يؤت مالا ولا علما، ولكنه لجهله وعمى قلبه، عاش وفي نيته أن لو كان له مالا لأنفقه في الشهوات والمعاصي، مثل ذلك الغني الجاهل، فهو يليه في الرتبة، ويساويه في الوزر بنيته الجازمة: "فوزرهما سواء"، وهذا هو الأحمق حقا، فقد خسر الآخرة، ولم يكسب الدنيا، بخبث نيته، وسوء قصده، وأشقى الناس: من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

قال ابن القيم معقبا على الحديث: "فقسم السعداء قسمين، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين، وجعل الجهل وما

يترتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه. والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته".

العلم يثمر اليقين والمحبة

ومن فضل العلم: أنه يثمر اليقين، الذي به حياة القلب وطمأنينته، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه، حيث قال: (وبالآخر هم يوقنون)، وهم الذين فصل الله لهم الآيات، سواء أكانت آيات تنزيلية مسطورة، أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالى: (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون)، (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)، (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون).

أثنى الله على خليله إبراهيم بقوله: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين).

وذم من لا يقين عنده بقوله: (أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون).

ولقد جعل القرآن اليقين أحد عنصرين يرتقي الإنسان بهما إلى الإمامة في الدين، كما قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون).

والإنسان إذا كان إيمانه ويقينه مزعزعا، ناوشته الشبهات من كل جانب، وعرضت له الشكوك عن يمين وشمال، وذلك لضعف علمه، وقلة بصيرته، فيغدو كالريشة في مهب الريح، لا تستقر على حال.

أما صاحب اليقين، فهو ـ لرسوخه في علمه، وقوة إيمانه ـ كالطود الراسي، لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا تؤثر فيه رياح الشكوك والشبهات، بل هو لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ـ كما قال ابن القيم ـ ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكا، لأنه قد رسخ في العلم، فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة.

وإنما سميت الشبهة شبهة، لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس، فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها.

ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد، نظرا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضية على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته.

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر.. وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح.

إن صاحب العلم واليقين، الذي رزقه الله البصيرة النافذة، والنور الكاشف، لا يلتبس عليه الحق بالباطل، ولا تروج عنده الشبهات، كما لا تغريه الشهوات، فهو مزود بسلاحين قويين يرد بهما جيوش الباطل، فهو يرد جيش الشهوات بسلاح الصبر، وجيش الشبهات بسلاح اليقين، كما قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون).

قال ابن القيم: "واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما قوتها، وجميع منازل السائرين، ومقامات العارفين، إنما تفتح بهما، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم.

قال شيخ العارفين الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول، ولا يتغير في القلب.

وقال سهل: حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله!

وقيل: من علاماته الالتفات إلى الله في كل نازلة، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون.

وقيل: إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة، والمحنة منحة، فالعلم أول درجات اليقين، ولهذا قيل: العلم يستحملك واليقين يحملك، فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده، ولا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين".

واليقين إنما هو علم راسخ في القلب لا يعتريه شك ولا وهم، وهو قابل للزيادة والترقي في علم اليقين، إلى عين اليقين، ثم إلى حق اليقين.

فأنت إذا أخبرك جماعة من الثقات بأن صديقك رجع من سفره، وهو قادم إليك، فخبرهم هذا يورث عندك علم يقين بقدومه. فإذا كلمك بالهاتف (التليفون) وقال: أنا قادم إليك، فقد أصبح عندك عين اليقين، فإذا قدم عليك بالفعل، وتلاقت الوجوه وتصافحت الأيدي، فهذا هو حق اليقين.

ومن هنا وجدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، لينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، أو إلى حق اليقين: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم).

ولقد أسرى الله بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السموات العلا، ليريه من آياته، ويشهده من ملكوته ما آمن به يقينا من طريق الوحي، فيزداد يقينا مع يقين، كما قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آيتنا).

(وما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى).

يؤكد ما ذكرناه: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته، وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة مرضاته ومحبته. ولذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، فكمال العبد ـ الذي لا كمال له إلا به ـ أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له. ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته. قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم).

فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه: أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه، كما يتوب من الذنب، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده. وهو دائما بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائما في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى، والحمقى عباداتهم عادات.

وقال بعض السلف: حبذا نوم الأكياس وفطرهم، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، فالمحب الصادق إن نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله، فهو لله وبالله ومع الله.

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبب له من غيره، إلا بالعلم،

فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم ذاته، ولأنه في نفسه صفة كمال، بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته.

ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح. حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

قال ذو النون، وقد سئل: من السفلة؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه!

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل، وقد أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة.

وقال أبو حمزة البزاز: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله.

وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد: ذهاب الإسلام على أيدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم.

قلت (القائل ابن القيم): الصنف الأول: من له علم بلا عمل، فهو أضر شيء على العامة، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة.

والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه، فيتقدون به على جهله، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون! فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة، عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل، وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه، وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار، وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم، والله يستعمل من يشاء في سخطه، كما يستعمل من يحب في مرضاته، إنه بعباده خبير بصير. ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم، فعاد الخير بحذافيره إلى العلم بموجبه، والشر بحذافيره إلى الجهل بموجبه".

الفصل الثالث - طلب العلم فريضة

الحث على التعلم

ومما عنى به الإسلام: الحث على التعلم، فقد خلق الله الناس غفلا من العلم، وأعطاهم أدوات العلم ليتعلموا، فإنما العلم بالتعلم، قال تعالى: (والله أخرجنكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون).

وقال الشاعر:

تعلم، فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل!

وقد ذكرنا في أكثر من حديث: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة".

"وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع".

وإن طلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله.

وقال صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

وقال الله تعالى في كتابه: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)، وقال: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

وقال ابن عباس: ذللت طالبا، فعززت مطلوبا!

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة!

وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالا كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهمه، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه!

وقال أبو الدرداء: لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة!

وقال: العالم والمتعلم شريكان في الخير. وسائر الناس همج لا خير فيهم.

وقال أيضا: كن عالما أو متعلما أو مستمعا، ولا تكن الرابع فتهلك! والرابع هو المعرض عن العلم.

ومما يحكى من وصايا لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

وقد ذكر القرآن لنا تلك الرحلة التاريخية التي قام بها نبي من أولي العزم من الرسل ـ وهو موسى الذي كلمه الله تكليما، واصطفاه برسالاته، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور ـ ليطلب العلم عند رجل لم يذكر القرآن لنا اسمه، واختلف العلماء في شأنه: أهو نبي أم ولي؟ وحتى إن كان نبيا ـ وهو الصحيح ـ فليس في منزلة موسى قطعا، ويبدو أن موسى قطع هذه الرحلة، هو وفتاه وخادمه على أقدامهما، ولذا قال فيها: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا).

وفي هذه الرحلة التي قصها علينا القرآن يتجلى لنا بعض الآداب المهمة للتعلم.

أولى هذه الآداب: الحرص على العلم مهما يكن في طلبه من لأواء ومشقة وعناء، كما فعل موسى عليه السلام في رحلته إلى "مجمع البحرين" وقد لقي فيها ما لقي من النصب.

والأدب الثاني: التلطف مع المعلم، وإظهار الاحترام والتوقير له، وهذا ما نلمسه بجلاء ووضوح في تعامل موسى عليه السلام مع هذا العبد الصالح،

الذي عرف باسم "الخضر" عليه السلام، فقد قال له موسى بأدب التلميذ مع المعلم: (هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا).

والأدب الثالث: الصبر على المعلم، وهذا ما فعله موسى مع معلمه، فحين عرض عليه أن يتبعه ليعلمه مما علمه الله، قال المعلم: (إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال ستجدني إن شاء الله صابرا لا أعصي لك أمرا، قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا).

والأدب الرابع: أن المؤمن لا يشبع من العلم، وأنه يطلب أبدا الزيادة منه، كما قال الله لخاتم رسله: (وقل رب زدني علما). وهذا ما حرص عليه موسى: أن يضيف إلى علمه علما آخر.

والأدب الخامس: ما نبهت عليه السنة النبوية، وهو: أن يتعلم العلم يريد به وجه الله تعالى. وبذلك يغدو طلب العلم عبادة وجهادا في سبيل الله، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" .. يعني ريحها.

وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار".

العلم من المهد إلى اللحد

والتعلم أو طلب العلم في الإسلام لا يقف عند حد معين، ولا عند سن معينة، وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة: "اطلب العلم من المهد إلى اللحد"، حتى ظنها الناس حديثا نبويا، وما هي بحديث، ولكنها من مأثور التراث الإسلامي.

وكم رأينا من علماء السلف من يطلب العلم، وهو على فراش الموت، فيسأل بعض أصحابه أو أبنائه أن يقرؤوا عليه تفسير بعض الآيات القرآنية أو بعض الأحاديث النبوية، أو بعض المسائل الفقهية، أو نحو ذلك، حتى يأتيه الموت وهو يطلب العلم.

وكم رأينا من الشيوخ الكبار في السن، والكبار في العلم، من يطلب العلم، لا يستحي من شيخوخته ولا يستحي من مكانته، ولا يجد في ذلك غضاضة ولا حرجا، ليحقق الحديث الشريف: "منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا".

وقد حكى لنا الحافظ ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم" صورا ووقائع شتى.

ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: إلى الممات.

قال نعيم بن حماد: سمعت عبدالله بن المبارك رضي الله عنه يقول ـ وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث ـ فقالوا له: إلى متى تسمع؟ قال: إلى الممات.

وقال الحسين بن منصور الجصاص: قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: إلى الموت.

وقال عبدالله بن محمد البغوي: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغ مع أبي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل، وهو يعدو، ونعلاه في يديه، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبدالله، ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء؟! قال: إلى الموت.

وقال عبدالله بن بشر الطالقاني: أرجو أن يأتيني أمري، والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني العلم والمحبرة!

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري: جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث فقلت له: ما أشد حرصك على الحديث! فقال: أو ما أحب أن أكون في قطار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وقيل لبعض العلماء: متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ قال: ما حسنت به الحياة!

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش.

العلم المفروض طلبه فرض عين

في الحديث المشهور الذي رواه ابن ماجه وغيره: "طلب العلم فريضة على كل مسلم".

والمراد بالمسلم في الحديث: الإنسان المسلم، رجلا كان أو امرأة، ولهذا أجمعوا على أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة، وإن لم يرد لفظ: "مسلمة" في رواية الحديث.

وقد اختلف شراح الحديث في تحديد "العلم" المفروض طلبه. فكل صاحب اختصاص في علم أوله على العلم الذي يشتغل به.

فالمتكلم قال: هو علم العقائد الذي يعرف به توحيد الله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والفقيه قال: هو علم الفقه الذي يعرف به الحلال والحرام، وتعرف به صحة العبادات، واستقامة المعاملات.

والمفسر قال: هو علم تفسير كتاب الله، الذي هو أساس الملة، ومرجع الأمة.

والمحدث قال: هو علم الحديث المبين للقرآن، المجسد لسيرة الرسول، وأقواله وأعماله وتقريراته.
والمتصوف قال: هو علم طريق الآخرة، والسلوك إلى الله تعالى، وكيفية تزكية النفس، وعلاج مداخل الشيطان إليها.. الخ.

والأصولي قال: بل هو علم أصول الفقه. الذي به يعرف الاستدلال، فيما فيه نص، والاستنباط فيما لا نص فيه.

بل هناك من قال: علم العربية من النحو والصرف والبلاغة، التي بها يفهم القرآن والحديث.

والذي نراه هنا: أن على المسلم أن يتعلم من دينه ما يعرف به ربه، ويعرف به نبيه، ويستيقن بصدق نبوته

وصحة رسالته، وأن القرآن المنزل عليه من عند الله، ويعرف العقائد الأساسية في الإسلام: في الإلهيات والنبوات والغيبيات المتعلقة بالآخرة والعالم غير المنظور، وأن يأخذ ذلك من كتاب الله تعالى بما فيه من بينات تقنع العقل، وتنير القلب، بعيدا عن التقليد الأعمى، وعن المماحكات الجدلية، التي أفسدت تفكير الخواص، واعتقاد العوام.

والمطلوب هنا: أن تكون دراسة العقيدة مبنية على أساسين:

١. القرآن الكريم، لا على أنه أخبار نقلية، بل بما يتضمنه وما ينبه عليه من براهين، فقد أنزله الله هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، ويؤخذ من السنن الصحاح ما يبين القرآن، وما يسير في ضوئه.

٢. العلوم الكونية الحديثة، بما تكشف للناس من أدلة تعين الناس ـ وخصوصا المتشككين ـ في وجود الله تعالى وفي وحدانيته، وإبداعه في كونه، وإحسانه لخلقه، وتقرب منهم الحقائق الدينية من النبوة وأمور الآخرة.

كما أن على المسلم أن يتعلم من أحكام الإسلام وشرائعه ما هو في حاجة إليه، من علم الطهارة، والصلاة، وهو ما لا يستغني عنه مسلم، ومن علم الصيام عندما يجئ رمضان، ومن علم الزكاة عندما يملك نصابها، ويتعلم من أنواع الزكاة ما هو مفتقر إليه، فإن كان تاجرا تعلم زكاة التجارة، وليس مطالبا بمعرفة زكاة الأنعام أو الزروع والثمار. وإذا قدر على الحج وعزم عليه عرف أهم أحكامه.

كما عليه أن يعرف أهم أحكام الحلال والحرام التي يتعرض لها المسلم في حياته: في المأكل والمشرب والملبس والزينة، والبيت، والعمل، وحياة الأسرة والمجتمع.

ولا يلزمه أن يتبع مذهبا معينا، وخصوصا إذا كان من أهل العلم، ويمكنه أن يبحث عن الحكم بدليله، فلا ينبغي لمثله أن يرضى بالتقليد، فقد أجمع العلماء المتقدمون على أن "العلم" هو معرفة الحق بدليله، وأن التقليد المطلق ليس علما!

وقد يقبل من الشخص العامي أن يتبع مذهبا من مذاهب الأئمة المعروفين إذا لم يجد في بلده غيره، على ألا يتعصب له بالحق وبالباطل. وإذا نصحه ناصح أمين من ثقات العلماء أن مذهبه ضعيف في هذه المسألة، واطمأن إليه قلبه، فلا حرج عليه أن يدع مذهبه في هذه القضية، ويأخذ بالمذهب الراجح، وهذا ما يسر إمامه الذي يدعي اتباعه.

وعلى كل مسلم أن يعرف ما يخصه من أحكام، فالوالي يعرف أحكام الولاية، والتاجر يعرف أحكام التجارة، والزوج يعرف حقوق الزوجية وواجباتها، والأب يعرف حقوق الأبوة والبنوة.. وهكذا.

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم الأخلاق والآداب الشرعية: ما يضبط به سلوكه بضوابط الشرع، فلا يحيد عما أمر الله به، ولا يتجاسر على ما نهى الله عنه، متحليا بالفضائل، متخليا عن الرذائل.

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم طريق الآخرة والسلوك إلى الله: ما يساعده على السير في الطريق، ويعرفه بالعوائق والآفات التي تعترضه، ويقوى البواعث الخيرة في نفسه. حتى يزكي نفسه ويفلح: (قد أفلح من زكاها) ويترقى حتى يصل إلى درجة الإحسان الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وهذه هي العلوم التي يجب على كل مسلم معرفتها، وهي ـ كما قلنا ـ موصولة بالكتاب والسنة، فمعرفة هذه العلوم تتضمن معرفة ما يلزم من التفسير والحديث.

وهناك علوم مكملة، ينبغي للمسلم أن يلم بها، مثل معرفة "السيرة النبوية"، ودراسة شيء من "علوم القرآن" و"علوم الحديث" أو مصطلحه، وإذا تعمق في العلم قرأ شيئا من "أصول الفقه"، على أن تدرس هذه كلها في كتب ميسرة بلغة معاصرة.

المهم أن يصل المسلم بمعارفه إلى حد يستطيع به: أن يزن أفكاره ومشاعره، وأقواله وأعماله، وعاداته، وسائر أموره بميزان الشرع، وأن يحكم على الأشخاص والجماعات والمواقف والسياسات بحكم الإسلام، ومن منطلق الإسلام، بعيدا عن إفراط الغلاة، وتفريط المقصرين، فعلى أساس الإسلام يحمد ويذم، ومن أجله يرضى ويسخط، ويصل ويقطع، ويسالم ويحارب، فما رضيه الشرع رضيه، وما رفضه الشرع رفضه، غير عابئ به ولا آسف عليه، كما قال تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) وبذا يصبح هواه تبعا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو تمام الإيمان.

ومن المفروض فرض عين في عصرنا: أن يتعلم المسلم القراءة والكتابة، ويزيل عن نفسه وصمة الأمية، فقد أصبحت الأمية عائقا للأمة عن التقدم

والتنمية، وغدا التعلم من أسباب انتصارها وعزتها. وفي ميدان المنافسة الاقتصادية والحضارية في عصرنا لا مكان لأمة أكثرها من الأميين!

ولقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم في محاربة الأمية في حياته منذ السنة الثانية من الهجرة، حين جعل فداء الأسير الكاتب: أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة. والواجب علينا اليوم أن نكمل المسيرة، وألا نتخلف في السباق الحضاري.

كيف يحصل المسلم العلم المفروض عليه؟

وهنا يطرح سؤال تجب الإجابة عنه، وهو: كيف يستطيع المسلم يحصل العلم المفروض طلبه عليه؟

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف أحوال المسلم، فالمسلم القارئ المتعلم غير المسلم الأمي.

فيستطيع المسلم أن يحصل هذا العلم المفروض عليه، إما بالتلقي والسماع مشافهة من علماء ثقات في علمهم وتقواهم وحسن فهمهم للدين وللواقع معا. وهذا ما يلزمه الأميين، وليس لهم خيار في غيره، واجتهاد المسلم هنا في اختيار العالم الذي يتلقى منه. ويجب أن يفرق المسلم بين العالم الواعظ الذي يأخذ منه الموعظة والتذكير، والعالم الفقيه الذي يتلقى عنه الأحكام والشرائع، فليس كل واعظ مؤثر، أو خطيب مفوه، يكون ثقة في فقهه وفتواه، فإن الله وزع المواهب والقدرات، وقليل ما هم.

ومن وسائل التثقيف في عصرنا: الشريط المسموع (الكاسيت)، وهو وسيلة مهمة وسريعة التأثير، ويمكن للإنسان أن يستخدمه وهو في سيارته، أو في محل تجارته، أو المرأة في مطبخها، أو غير ذلك، دون أن يتكلف جهدا غير الاستماع والتفهم.

ويضاف إلى ذلك في عصرنا ما يبثه "التلفاز" من برامج دينية.

وإما بالقراءة والمطالعة لكتب ألفها علماء ثقات كذلك، وستظل للكلمة المكتوبة قيمتها وأثرها في التوجيه والتثقيف، وهي الأطول عمرا، والأبقى أثرا.

وينبغي للمسلم أن يتخير الكتب التي يقرؤها عامة، والتي يتعلم منها دينه خاصة، فإن المطابع تخرج كل يوم الثمين والغث، والجديد والرث، فكم فيها من أصيل نافع، وكم فيها من دخيل ضار، وعلى المرء أن يأخذ ما صفا، ويدع ما كدر.

وقد قال أحد الحكماء: أخبرني ماذا تقرأ؟ أخبرك: من أنت!

هذا.. وقراءة الكتب القديمة لا يحسنها كل أحد، فهي تحتاج إلى أدوات ومفاتيح خاصة لفهمها، لما فيها من مصطلحات، وقضايا علمية متصلة بعلوم مختلفة، لغوية وشرعية، يستغلق فهمها على كثير من الناس، ولابد من تلقيها على شيوخها، ليفكوا رموزها، ويردوها إلى أصولها.

ومن هنا حذر الراسخون من علماء الأمة من أخذ العلم عن "الصحفيين"، ويعنون بهم الذين يكونون علمهم من "الصحف" وحدها، دون أن يعيشوا في مدارس العلم، ويعايشوا أهله، ويخالطوا شيوخه وتلاميذه، وقالوا في ذلك قولتهم المشهورة: لا تأخذ القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي!

فالقرآن لا يؤخذ ممن تعلمه من المصحف وحده، ولم يتلقه على أيدي شيوخه القراء المتقنين، وكذلك العلم.

وفرض على المسلم أن يسأل في كل ما يعترضه من مسائل أو مشكلات يجهل فيها حكم الشرع، ولا يجوز له أن يعمل فيها بهواه، أو حسب رأيه الخاص، أو رأي من ليس من أهل العلم والفتوى، ولا عذر له في ترك السؤال حياء، أو كبرا، أو كسلا، أو انشغالا بأمر الدنيا، قال تعالى: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، و(فسئل به خبيرا).

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن قوم أهملوا السؤال في واقعة حدثت لهم، ترتب عليها قتل امرئ مسلم: "قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال".

فرض الكفاية في العلم

وأما فرض الكفاية، فقد يكون في علوم الدين، وفي علوم الدنيا.

فأما علوم الدين.. فما ليس بفرض عين فيها فإن تعلمه والتبحر فيه فرض كفاية، بحيث يظل في الأمة من إذا استفتى أفتى بعلم، وإذا قضى قضى بحق، وإذا دعا دعا على بصيرة.

يدل على هذا قوله تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم، إنما أوجبه على طائفة في كل فرقة. سواء أكانت هذه الطائفة اثنين أو أكثر أو أقل، مادامت تكفي لوظيفة الفقيه والإنذار.

كما يدل عليه حديث: "حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا بغير علم فضلوا وأضلوا".

والواجب على الأمة ـ بالتضامن ـ أن تهيئ من أبنائها من يقوم بهذه المهمة في الإفتاء والتفقيه والتعليم والدعوة والإرشاد، في صورة التخصص العالي، والعلم الاستقلالي، وأن يكون لديها العدد الكافي بحيث يلبي حاجتها في كل بلد من البلدان.

وأما علوم الدنيا.. فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالي، وهو أن فرض الكفاية منها: كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد ممن

يقوم بها حرج أهل البلد (يعني: دخل عليهم الحرج والمشقة) وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

قال: "فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام (الذي يقوم بجراحة الحجامة، وهو نوع من الجراحة الخفيفة) تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة، فالتعمق في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وغير ذلك، مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه".

وما قاله الغزالي هنا قوي وموافق لمقاصد الشريعة، فإنها تقصد إلى إنشاء أمة قوية عزيزة مكتفية بذاتها، قادرة على التصدي لأعدائها، وهذا يوجب عليها ـ بالتضامن ـ أن تتفوق في كل العلوم الطبيعية والرياضية التي تحتاج إليها الأمم في عصرنا لتنمو وتتقدم. وليس الطب والحساب فقط، كما تحتاج إلى الصناعات التكنولوجية المتطورة، وليس أصول الصناعات القديمة وحدها.

هذا.. ولا نوافق الإمام الغزالي على اعتباره التعمق في دقائق الحساب، وحقائق الطب: مجرد فضيلة لا فريضة، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنه، أما زمننا فيعتبر التعمق في هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأحياء وغيرها، بحيث يصل إلى دقائقها، ويرتقي إلى حقائقها، فريضة لازمة. والأمم تتسابق في هذا تسابقا خطيرا، كل تحاول أن تحتل مكانا يجعل لها قدرا، ولولا التعمق في هذه العلوم ما وصل عصرنا إلى تحطيم الذرة، وغزو الفضاء، وصناعة "الكمبيوتر"، والثورة "التكنولوجية"، وثورة البيولوجيا "هندسة الوراثة والجينات"، وثورة المعلومات، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا.

العلم المباح

وقد ذكر الغزالي ـ رحمه الله ـ العلم المباح، فضرب له مثلا بالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، والعلم بتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وهذا إذا كان بالنسبة للأفراد فهو مسلم، فهو في حقهم من المباح، الذي يمكن أن يتحول إلى طاعة بالنية الصالحة، بمعنى أن يقصد بتعلمه خدمة الدين، وإرضاء الله تعالى، وقد بينا في كتابنا "ثقافة الداعية": أن الدراسة اللغوية والأدبية، والدراسة التاريخية ـ وخصوصا التاريخ الإسلامي بدءا من السيرة النبوية وتاريخ الراشدين، وتاريخ العلماء والمصلحين ـ من الأدوات الضرورية للداعية.

وأما بالنسبة للأمة، والحديث عن الفروض الكفائية الواجبة عليها ـ فأعتقد أن دراسة الأشعار والأدب، وكذلك دراسة التاريخ ـ من فروض الكفاية على الأمة، فلابد أن يوجد فيها متخصصون في هذه المجالات، يعبرون عن فلسفة الأمة وحضارتها، ويجعلون من دراستهم أداة بناء لها لا معول هدم لكيانها.

ولو ترك هذا المجال فارغا لملأه أولئك الذين يمثلون فلسفات دخيلة على الأمة، لا تهتم بدينها ولا قيمها، ولا رسالتها ولا تراثها، بل تعادي ذلك كله.

وهذا ما عانيناه من ذوي الغرض من المستشرقين من الغربيين، والمستغربين من أبنائنا الذين لم يتحصنوا بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخلق المتين.

العلم المذموم

وذكر الإمام الغزالي هنا: المذموم من العلم، ومثل له بعلم "السحر والطلسمات"، وعلم "الشعوذة والتلبيسات".

وهذا صحيح.. فقد ذكر الله السحر في كتابه وذمه أبلغ الذم، وقال في شأن تعلمه: (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم).

واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم السحر من السبع الموبقات، أي المهلكات للفرد وللجماعة.

ومثل ذلك كل علم لا يقوم على أساس صحيح، أو لا ينفع الناس في دينهم ولا دنياهم، بل يعود عليهم بالضرر المادي أو المعنوي.

ومن ذلك: علم التنجيم، الذي يدعي فيه معرفة الغيوب، وكشف المستقبل بواسطة النجوم، فهذا محرم، لأنه ضرب من السحر، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عباس: "من اقتبس علما من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد".

فهذا العلم لا يقوم على أساس منطقي أو تجريبي، وإن صدق فبالاتفاق والمصادفة، ولذا قيل: كذب المنجمون ولو صدقوا!

وهذا بخلاف "علم الفلك" المبني على أسس رياضية وتجريبية، وقد برع المسلمون فيه أيام ازدهار حضارتهم، وبرع الغربيون فيه اليوم، وعلى أساسه استطاعوا الوصول إلى القمر، ويحاولون الوصول إلى الكواكب الأبعد.

الفقه وحسن الفهم

أول حقوق العلم على طالبه أو صاحبه: أن يبذل فيه جهده، حتى يحكمه ويتقنه ويهضمه، وينتقل به من مرتبة "العلم" إلى مرتبة "الفقه". الفقه بالمعنى القرآني والنبوي لا بالمعنى الاصطلاحي، الذي معناه تحصيل علم الفروع على مذهب من المذاهب.

والفقه بهذا المعنى المنشود أخص من العلم، لأن معناه لغة: الفهم والتفطن وحسن الإدراك، ومقتضى هذا ألا يقف عند الظواهر، وإنما يغوص إلى المقاصد، وألا تشغله الألفاظ عما وراءها من معان، وألا تغرقه الجزئيات فينسى الكليات.

والقرآن طلب منا النفير للتفقه في الدين لا لمجرد التعلم، فقال تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين).

والحديث النبوي المتفق عليه يقول: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".

وأول مراتب هذا الفقه: أن ينتقل من الرواية إلى الدراية، من الحفظ إلى الفهم، فيفهم عن الله ورسوله مرادهما، ويسأل أهل العلم ويحاورهم حتى يفهم ويفقه.

وقد قال سلفنا: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما هو نور يقذفه الله في القلب.

وفي الحديث الشريف: "رب حامل فقه ليس بفقيه".

وفي القرآن الكريم قد صور لنا الذي يحمل العلم ولا يفقهه ولا يفهم أسراره، بالحمار الذي يحمل نفائس الأسفار (أي الكتب) ولا يدري عما تحتويه شيئا،

وهذا ما وصف به القرآن اليهود في عصر النبوة حين قال: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا).

أخذ هذا المعنى شاعر مسلم، فوصف به الذين يحملون العلم ولا يعون مقاصده، ولا يغوصون فيه، فقال:

زوامل للأسفار لا علم عندهم

وفي حديث الصحيحين عن أبي موسى تشبيه العالم الفاهم المعلم بالأرض الطيبة التي قبلت الماء الذي نزل عليها من السماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وانتفع الناس بها، كما شبه العالم الراوي بالأرض التي لم تقبل الماء، ولكنها احتفظت به، فشرب الناس منه، وسقوا وزرعوا، ففرق الحديث بين العلماء الوعاة، والعلماء الرواة، ومن هنا ركز علماء السلف على الدراية أكثر من الرواية.

إن آفة كثير من المشتغلين بعلم الدين خاصة هو "الحرفية" في فهم نصوصه، وجمودهم على ظواهر ألفاظه، وعدم وقوفهم على أسراره، لأنهم دون هذه المرتبة بحكم مؤهلاتهم العقلية والنفسية، ولكن مشكلتهم أنهم يضعون أنفسهم في زمرة "الأئمة"، ويتصدرون الصفوف للدعوة، والتعليم والإفتاء!

وهؤلاء عادة يعوقون عملية التغيير المطلوب، ويقفون عقبة في طريق الإصلاح والتجديد الإسلامي، وكثيرا ما شكا منهم المجددون الأصلاء أمثال ابن تيمية وابن القيم قديما، وأمثال محمد عبدة، ورشيد رضا حديثا.

ولقد رأيناهم أشد على دعاة التجديد والإصلاح من "العلمانيين" وخصوم الدين في بعض الأحيان، وقديما قالوا: عدو عاقل خير من صديق أحمق.

الترقي عن التقليد

وثاني مراتب الفقه المطلوب: أن يرقى طالب العلم عن التقليد للغير، إلى الفهم المستقل، وأن يفكر برأسه هو لا برأس أحد سواه، حيا كان أو ميتا، فإن الله منحه العقل ليتفكر به ويتدبر، لا ليجمده ويعطله.

وقد قال الإمام ابن الجوزي كلمة مضيئة ينبغي أن نعيها ونرويها لتحفظ، قال في ذم التقليد والمقلدين في كتابه "تلبيس إبليس": "اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتدبر والتأمل، وقبيح بمن أعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة"!

لقد شن القرآن حربا عنيفة على "المقلدين" الذين حقروا أنفسهم، وألغوا عقولهم، متبعين أجدادهم وآباءهم، أو سادتهم وكبراءهم، فيما اعتقدوه من عقائد، وما اعتنقوه من أفكار، وسفههم القرآن أبلغ تسفيه في سور عدة من القرآن المكي والمدني.

ويكفينا قوله تعالى في ذم تقليد الآباء: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون).

وفي ذم تقليد الكبراء قوله سبحانه: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا).

وفي سورة الأعراف تتحدث الآية عن أهل النار، وتلاوم الأتباع والمتبوعين فيها وتلاعنهم: (كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون).

والتقليد ـ كما يعرفونه ـ أن تأخذ قول الغير بغير حجة بينة تؤيده، فربما لم تكن معه حجة قط، وربما كانت معه حجة واهية لا تقف أمام حجج من يعارضه.
ومصدر ذلك: التعظيم أو التقديس لذلك الغير، أضفاه عليه المقلد التابع،

فرضي لنفسه أن يكون ذيلا وقد خلقه الله رأسا، وأن يكون عبدا في فكره، وقد خلقه الله حرا.

واتباع الوحي ليس من التقليد في شيء، بعد أن ثبت بالبراهين العقلية القاطعة نبوة النبي، وإلهية القرآن، بعد ثبوت ربوبية الرب الخالق المعلم الأكرم، وثبوت إلهية الإله العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي ينافي حكمته ورحمته أن يدع خلقه هملا، ويتركهم سدى.

وبعد ثبوت الوحي بالقواطع العقلية، يعزل العقل نفسه ـ بتعبير الإمام الغزالي ـ ليتلقى الهداية الإلهية التي تصحح للعقل أخطاءه، وتهديه فيما ليس له إليه سبيل من الإلهيات والغيبيات، وتضع الموازين والضوابط فيما يحتاج إليه، وتدع له حق التفسير والتعليل فيما أنزل إليه، مهتديا بما بين له من ضوابط. وتطلق له العنان في اكتشاف ما في الكون وتسخيره، بعقل المؤمن، وتفكير المهتدي بهدى الله.

إن أشد شيء على العقل خطرا ـ بعد اتباع الهوى ـ هو التقليد الأعمى، الذي لا نزال نراه في حياتنا في صور شتى.

فهناك من باعوا عقولهم ـ أو تنازلوا عنها بغير ثمن ـ لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحدثين.

هناك من المشتغلين بالفقه من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها، لأئمتهم أو شيوخهم من السلف أو الخلف.

وهناك من المشتغلين بالكلام والعقائد من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها لأئمتهم أو شيوخهم من السلف أو الخلف.

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف من باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل.

وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من المتغربين، باعوا عقولهم أيضا أو تنازلوا عنها بغير ثمن لأئمتهم وشيوخهم في الغرب!

دعاة "الليبرالية" باعوا عقولهم لأئمة اليبراليين! طالبين منا أن نتبعهم في الخير والشر، والحلو والمر، وما يحمد وما يعاب.

ودعاة "الماركسية" ـ التي هزمت في عقر دارها ـ باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدرا للهداية والتشريع.

وكل دعاة الأيديولوجيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم، ودعونا أن نلغي عقولنا معهم، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شبرا بشبر، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم، وأفكار سادتهم وكبرائهم، ويعرضوها على قواطع العقل، وثوابت الوحي، ليعرف صحيحها من زيفها، وجيدها من رديئها، وحقها من باطلها، فيهتدوا بالحق، ويعرضوا عن الضلال (فماذا بعد الحق إلا الضلال)؟

لا يجوز للغرباء أن يتحكموا في أهل الدار، ولا ينبغي للأموات أن يحكموا الأحياء، وأن يفتوا في أخص أمورهم، وهم في بطون قبورهم!

العمل بالعلم

ومن حق العلم على صاحبه: أن يعمل بموجبه، فالعلم بالعبادات يقتضي أن يؤديها على وجهها، مستوفية شروطها وأركانها، خالصة لوجه الله تعالى. والعلم بالمعاملات يقتضي أن يقوم بها في حدود الحلال، بعيدة عن الحرام، مستكملة الشروط والأركان، والعلم بالأخلاق يقتضي أن يتحلى بفضائلها ويتخلى عن رذائلها، والعلم بطريق الآخرة، يقتضي أن يعد لها عدتها، ويسعى لها سعيها، ويحذر من قواطع الطريق التي تعمل على أن تثبط إرادته، وتعوق حركته.

وبهذا يكون العلم حجة له، لا حجة عليه، ويستطيع أن يجد للسؤال جوابا إذا سئل يوم القيامة "عن علمه: ماذا عمل فيه"؟

فعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه" فيم فعل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟".

ولا يكون كذلك العالم الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضرب الله مثلا بالكلب في أسوأ صورة له: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).

وإنما ينتصر الدين، وترتقي الدنيا، بالعلماء العاملين، الذين يؤيد عملهم علمهم، وتصدق أفعالهم أقوالهم، فهم يؤثرون في الناس بسلوكهم وحالهم، أكثر مما يؤثرون بكلامهم، ولهذا قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!

وإن من شر ما تبتلى به الحياة، ويبتلى به الناس: العالم الذي يناقض عمله علمه، ويكذب فعله قوله، فهو فتنة لعباد الله، وهو الذي حذر القرآن من أهل الإيمان: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).

ووبخ القرآن بني إسرائيل بقوله: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون).

ولا غرو أن استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من العلم الذي لا ينفع، فعن زيد بن أرقم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها".

وعن أسامة بن زيد: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه (أي تخرج أمعاؤه من مكانها)، فيدور بها، كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه"!

قال أسامة: وإني سمعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: "مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون"!

وصور النبي صلى الله عليه وسلم العالم الذي ينفع الناس بعلمه ولا ينتفع به تصويرا بليغا، حين قال: "مثل الذين يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل الفتيلة (يعني: السراج، أو الشمعة) تضيء للناس، وتحرق نفسها"!

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان"!

وسر هذا الخوف: أن هذا المنافق مزوق الظاهر، خرب الباطن، حلو اللسان، مر العمل، فهو يغر الناس بظاهر علمه، ويسحرهم بمعسول كلامه، وقلبه خاو من اليقين، فالمنافق الجاهل ليس من ورائه خطر يذكر، إنما الخطر في هذا المنافق العليم اللسان.

وعن عمر بن الخطاب قال: حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل منافق عليم اللسان.

ولهذا كان عمر كثيرا ما يستعيذ بالله من المنافق العليم، وقد سئل: كيف يكون منافقا وعليما؟ قال: عالم اللسان جاهل القلب.

وقال علي بن أبي طالب: قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك، ذاك يغر الناس بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!

تعليم العلم ونشره في الناس

ومن حق العلم على العالم: أن يعلمه للآخرين، فقد علمنا الإسلام أن في كل نعمة زكاة، فإذا كانت زكاة المال أن تنفق منه للمحتاجين، فإن زكاة العلم أن تعلمه للآخرين، وهذا هو شأن "الربانيين" الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

ولهذا قالوا: الرباني هو من يتعلم، ويعمل، ويعلم.

ورووا عن المسيح قوله: من علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماء!

وفي الصحيح: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

ولقد تعلمنا من القرآن: أن الله تبارك وتعالى هو المعلم الأول لخلقه، فهو الذي (علم الإنسان ما لم يعلم)، (الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان)، وهو الذي علم أنبياءه ورسله ليعلموا أممهم، فعلم آدم الأسماء كلها، وعلم إبراهيم، وعلم يعقوب، وعلم يوسف من تأويل الأحاديث، وعلم موسى، وداود وسليمان والمسيح، وعلم محمدا ما لم يكن يعلم.

وكان هؤلاء الرسل معلمين لأقوامهم، مبلغين عن ربهم، مبشرين ومنذرين، وآخرهم محمد، الذي ذكر الله رسالته في أربع آيات من كتابه يبين فيها أن مهمته الأساسية مهمة تعليمية، ويكفي أن نقرأ منها قوله تعالى: (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه: "إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا".

فمن أراد أن يتصف بصفة من صفات الله تعالى، وأن يتأسى برسوله الكريم، فليعلم الآخرين.

فعن أبي أمامة قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"، ثم قال: "إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير".

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها".

والحسد يطلق ويراد به تمني زوال النعمة عن المحسود، وهذا حرام ما لم يكن يستخدمها في معصية الله، ويطلق ويراد به: الغبطة، وهو: أن يتمنى أن يكون مثله، وهذا لا بأس به، وهو المراد هنا.

وقال تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

فهم يتفقهون في الدين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار: تعليم وإرشاد مقرون بالترغيب والترهيب.

وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على أن يبلغوا عنه كل ما يأخذونه عنه من قرآن أو حديث.

وروى عنه عبدالله بن عمرو: "بلغوا عني ولو آية".

وروى عنه ابن مسعود: "نضر الله امرءا سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع".

وروى عنه جبير بن مطعم: "نضر الله عبدا سمع مقالتي، فحفظها ووعاها، وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

نبه الحديث على أن حامل العلم قد يحفظه ولكنه غير قادر على الاستنباط منه، فهو ينقله إلى غيره ممن هو أفقه وأقدر على استخراج الحكم منه. فيشاركه في الأجر.

وكل من علم العلم أو بلغه ونشره، فله أجر من انتفع به، إذا صحت بذلك نيته، وابتغى وجه الله فيه، فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: "فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من حمر النعم".

وقال عليه الصلاة والسلام: "على خلفائي رحمة الله" قيل: ومن خلفاؤك؟ قال: "الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله".

وهكذا مضى الربانيون من علماء الأمة هداة معلمين، لا يضنون بعلم على من طلبه، بل يكرهون أن يحيوا ولا يستفيد منهم أحد.

قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء!

وقدم سفيان الثوري عسقلان، فمكث أياما لا يسأله إنسان. فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم!

وقال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم! أي أن العلماء يخرجونهم بالتعليم من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وجوب البيان وتحريم الكتمان

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم في دين الله، فإنه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم، مما ينفع الله به الناس من البينات والهدى، فإن زكاة العلم ـ كما ذكرنا ـ نشره وبثه، لا كنزه وحبسه.

قال تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم).

والآيتان نزلتا في شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، الذين كتموا صفات النبي صلى الله عليه وسلم في كتبهم، بالحذف أو الإخفاء، أو التحريف. ولكن اللفظ عام يشمل كل من كتم من دين الله علما يحتاج إلى بثه.

فلا يجوز للعالم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع، ومن قصد ذلك فهو عاص آثم، وإذا لم يقصد إلى الكتمان وكان في الناس من يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رفع عنه الإثم، فإن البيان فرض كفاية إذ قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم "أمة" أي جماعة وقوة، كما أمر الله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون).

ويتعين البيان على العالم إذا سأله يسترشد عن أمر من أمور دينه، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالا على غيره، حتى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك.

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار".

ذلك أن من حق السائل المتعلم على العالم أن يجيبه ويعلمه، ما لم يكن متعنتا ولا متنطعا، يتتبع الغرائب وأغلوطات المسائل، فقد ورد النهي عن هذه الأغلوطات، وأدب عمر سائلا عرف بذلك.

كما يحرم على العالم المسلم السكوت عن البيان العلمي باللسان أو القلم إذا ترتب على سكوته التباس الحق بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للبس، وإيضاحا للحق، فإن البيان هنا من باب الشهادة التي يحرم كتمانها: (ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه).

وقد ضرب القرآن لنا مثلا بعلماء السوء من اليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله، ابتغاء عرض الدنيا فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا، فبئس ما يشترون)، وقال سبحانه: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار).

إن في هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الذين يجارون الملوك الفاسقين والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحق وهم يعلمون، فكيف بالذين يحلون لهم الحرام، ويسقطون عنهم الفرائض، ويمدونهم بالفتاوى الجاهزة لكل بدعة يبتدعون، وكل منكر يقترفون؟

الوقوف عند ما يعلم

ومن حقوق العلم على العالم: أن يقف عند حدود علمه، ولا يتطاول إلى ما ليس من شأنه، ولا في طاقته. كالعلم بكنه الذات الإلهية، فإن الإنسان قد عجز عن معرفة كنه نفسه، فكيف يطمع في معرفة كنه ربه عز وجل؟ وقد قال تعالى: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما).

وكذلك معرفة الغيب المطلق الذي استأثر الله بعلمه: (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله).

ومن ذلك: علم الساعة الذي لم يطلع الله عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حين سأله عنها: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، وقال تعالى: (يسألك الناس عن الساعة، قل إنما علمها عند الله).

وأولى بالإنسان أن يدخر طاقته العقلية ليبذلها فيما يستطيعه، وفيما يعود عليه بالخير في دينه ودنياه.

فيجب على العالم المسلم إذا سئل عما لا يعلم، أن يقول: لا أعلم. فليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم، وليس هناك من أحاط بكل شيء علما غير الله سبحانه، وكل بشر يعلم شيئا وتغيب عنه أشياء، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء، فلم يجب عنها حتى نزل عليه الوحي.

وقال ابن مسعود: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون!

وقال غيره: من قال: "لا أدري" فقد أجاب. ومن أخطأ قول: "لا أدري" أصيبت مقاتله!

وكم سئل من كبار الأئمة ـ مثل الإمام مالك ـ فلم يستنكف أن يقول: لا أدري.

وكان الصحابة إذا استفتوا أحال كل منهم السائل على صاحبه، خشية من تبعة الفتوى.

وكان ابن عمر يتهيب الفتوى، ويقول لمن سأله: اذهب إلى الأمير فاسأله. ويقول لصاحبه: أتدري ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يتخذوا ظهورنا جسورا إلى جهنم!

وبكى بعض علماء السلف، فسئل في ذلك، فقال: استفتى اليوم من لا علم عنده!

فكيف لو شاهد عصرنا، ورأى من يستفتون، ومن يفتون؟!

ولقد ابتلينا في عصرنا ببعض المجترئين الذين استباحوا حمى الشريعة، وأمسوا يحللون ويحرمون، ويوجبون ويسقطون، ويبدعون ويفسقون، بل يكفرون، لمجرد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفي بعض العلوم، ولم يعيشوا جو العلم، ولا طلبوه من شيوخه، ولم يتقنوا أدواته، ولم يملكوا مفاتيحه، ومع هذا أفتوا في أعوص المسائل، وحكموا في أغمض القضايا، واعترضوا على أكابر العلماء، وطعنوا في أئمة المذاهب، وساووا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين، وقال قائلهم: هم رجال ونحن رجال!

وهذا هو الذي يؤذن بضياع الدين، وخراب الدنيا، كما في الحديث المتفق عليه: "إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعا من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا".

وأشد الأمور خطرا: أن يفتي المرء فيما لا يعلمه ويستقينه من دين الله، فيحرم أو يحلل بغير بينة وبرهان من ربه، وهنا يكون الإثم على المفتى إذا كان المستفتي مخدوعا فيه، وإن كان عليه أن يتحرى ويبحث عمن يستفتيه في دينه، ويعلم منه شرع ربه.

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره، فقد خانه".

وفي عهد النبوة أصاب رجلا مسلما جراحة، ثم أصابته جنابة، فأفتاه بعض الناس بضرورة أن يغتسل، فعمل بفتواهم، فتفاقم جرحه، فمات منه. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال منكرا عليهم: "قتلوه، قتلهم الله! هلا

سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه".

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قتلوه، ودعا عليهم بقوله: "قتلهم الله!" فدلنا هذا على أن من الفتاوى ما يقتل، وليس كل القتل قتلا ماديا، لعل القتل المعنوي أشد خطرا من المادي، وأخطر منه قتل الجماعة، وإزهاق روحها بالفتاوى الجاهلة.

الفصل الخامس - الصوفية والعلم

بدأ الإمام الغزالي موسوعته "إحياء علوم الدين" ـ التي تضمنت أربعين كتابا، شملت العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات من الأخلاق ـ بكتاب "العلم"، الذي أفاض فيه، وفصل القول، في بيان أقسامه، والمحمود منه والمذموم، وبيان فرض الكفاية من فرض العين منه، كما ظهر لنا فيما سبق.

كما جعل أول "عقبة" يجب على سالك الطريق أن يجتازها هي: "عقبة العلم"، وذلك في كتابه "منهاج العابدين" الذي صنفه قبل موته بقليل، ليرسم فيه معالم الطريق إلى الله بإيجاز.

وكأن الغزالي بهذا الصنيع يرد على المنحرفين من المتصوفة الذين استخفوا بقيمة العلم، وزعموا أنه "حجاب" بين العبد وربه، وأثرت عنهم في ذلك عبارات تمجها الأسماع، وتنفر منها الطباع، لا يقبلها دليل الشرع، ولا برهان العقل.

ولم يكتف الغزالي ـ رحمه الله ـ بهذا، بل نجده كثيرا في شرحه للأخلاق الربانية والمقامات الإيمانية، يبين أهمية العلم لتحقيقها والمحافظة عليها، فالعلم أحد المكونات أو العناصر الأساسية الثلاثة، التي يعبر عنها بأنها: علم، وحال، وعمل.

فالعلم يمثل الجانب المعرفي والإدراكي، وهو المقدمة والأساس، والحال يمثل الجانب الوجداني والانفعالي، والعمل يمثل الجانب الإرادي والسلوكي.

وإلى هذا الترتيب يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم).

وقد ذكرنا فيما سبق تأثير العلم في السلوك وأنه من ثمراته ـ إذا رسخ وتمكن ـ اليقين والمحبة لله، وأنه الذي يعرف السالكين إلى الله حقيقة الإخلاص، وآفة الرياء.

بين العلم والمعرفة

بيد أن الغلاة من الصوفية يزدرون العلم الشرعي، في مقابل الكشف أو الذوق الصوفي.

"وهم يسمون صاحب العلم الشرعي "عالما"، ويسمون صاحب الكشف الصوفي "عارفا"، فـ "العلم" عندهم كسبي استدلالي، و"المعرفة" وهبية ضرورية ـوهي العلم اللدني ـ والعلم له الخبر، والمعرفة لها العيان.

ومثال هذا: أنك إذا رأيت في حومة ثلج ثقبا خاليا، استدللت به على أن تحته حيوانا يتنفس، فهذا علم. فإذا حفرته وشاهدت الحيوان، فهذه معرفة.

ولا مشاحة في الاصطلاح، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به، بشرط أن تتضح المدلولات، وتتحدد المفاهيم، ولكن الخطر هنا هو تحقير "العالم" وتقديس "العارف"، أو اعتبار ما يجئ من طريق المعرفة معصوما، وما يجئ من طريق العلم مظنونا أو مشكوكا فيه أو منقوصا، وإن كان مستمدا من الكتاب والسنة.

وذلك كقول بعض المنحرفين: "العلم يسعطك الخل والخردل، والعارف ينشقك المسك والعنبر"!

قال: ومعنى هذا: أنك مع العالم في تعب، ومع العارف في راحة، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق، والعالم يلوم. وقد قيل: من نظر إلى الخلق بعين "العلم" مقتهم، ومن نظر إليهم بعين "المعرفة" عذرهم!!

يقول الإمام ابن القيم معقبا على هذا الكلام الخطير:

"فانظر ما تضمنه هذا الكلام ـ الذي ملمسه ناعم، وسمه زعاف قاتل ـ من الانحلال عن الدين، ودعوى الراحة من حكم العبودية، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعباد الأوثان، والظلمة والفجرة، وأن أحكام الأمر والنهي ـ الواردين على ألسن الرسل ـ للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق، والوقوف عليها، والانقياد لحكمها، بمنزلة تنشيق المسك والعنبر.

فليهن الكفار والفجار والفساق، انتشاق هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها!

ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من كثرة سعوطهم بالخل والخردل!

فإن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا يجوز، وهذا لا يجوز، وهذا حلال وهذا حرام، وهذا يرضي الله، وهذا يسخطه: خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة، وإلا فالحقيقة تشهدك الأمر بخلاف ذلك.

ولذلك إذا نظرت ـ عندهم ـ إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع، فتعذر من توعده الله ورسوله أعظم الوعيد، وتهدده أعظم التهديد.

ويا لله العجب! إذا كانوا معذورين في الحقيقة، فكيف يعذب الله سبحانه المعذور، ويذيقه أشد العذاب؟

وهلا كان الغني الرحيم أولى بعذره من هؤلاء"؟

التزام الصوفية الأوائل بالعلم الشرعي

ولكن هؤلاء المنحرفين لا يمثلون التصوف كله، ومن الظلم أن نأخذ الجميع بوزرهم، إنما يمثله حقا شيوخه الكبار الذين أنكروا على هؤلاء هذه الدعاوى العريضة، التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسنة.

ويحسن بنا أن نذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في "مدارج السالكين" عن المعتدلين من أكابر القوم، وأئمة السلوك، وهو ما نقله القشيري في "رسالته" أيضا:

"قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص ـ رحمه الله ـ: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة.

وقال أبو زيد: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته.

وقال مرة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره، فلما دخلا عليه المسجد تنخع، ثم رمى بها نحو القبلة، فرجع فلم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه؟

وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولم أسأله، ثم إن الله كفاني مؤنة النساء، حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة!

وقال أحمد بن أبي الحواري ـ رحمه الله ـ: من عمل عملا بلا اتباع سنة، فباطل عمله.

قال ابن القيم: "وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه، كقول من قال: "نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت"!

وقول الآخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟!

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل!

وقول الآخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ "أخبرنا" و"حدثنا" فاغسل يدك منه!

وقول الآخر: لنا علم الحرق (جمع حرقة)، ولكم علم الورق.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلا يعذر بجهله، أو شاطحا معترفا بشطحه، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولو "أخبرنا" و "حدثنا" لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومن أحالك على غير "أخبرنا" و"حدثنا" فقد أحالك: إما على خيال صفوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي! فليس بعد القرآن و"أخبرنا" و"حدثنا" إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة، وكل طرق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم".

حقيقة العلم اللدني

أما "العلم اللدني" الذي طنطن به بعضهم، وأبدأ فيه وأعاد، وزعم الاستغناء به عن العلم الكبسي، الذي يتصل بالأدلة والشواهد، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في "منازل السائرين":

"العلم اللدني هو: العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سمي لدنيا، قال تعالى: (علم الإنسان ما لم يعلم)، ولكن هذا العلم أخص من غيره، ولذلك إضافة إليه سبحانه، كبيته وناقته وبلده وعبده، ونحو ذلك. فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدني، الحاصل بلا سبب ولا استدلال، هذا مضمون كلامه" (يعني الهروي صاحب "المنازل").

قال ابن القيم: "ونحن نقول: إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة، هو العلم الحقيقي، وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل، فلا وثوق به (وليس بعلم). نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعاين، وعلم اليقين كعين اليقين، فيكون الأمر شعورا أولا، ثم تجويزا، ثم ظنا، ثم علما، ثم معرفة، ثم علم يقين، ثم حق يقين، ثم عين يقين، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها، فهذا حق.

"وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال، فليس بصحيح، فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها، ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدله عليه، وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلتهم على أن ما جاءوا به هو من عند الله، ودلت أممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند الله، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم، فالأدلة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم: أعظم الشواهد والأدلة، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها،

وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علما، فضلا عن أن يكون لدنيا.

"فالعلم اللدني: ما قام الدليل الصحيح عليه، أنه جاء من عند الله على لسان رسله، وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود.

"وقد انبثق سد العلم اللدني، ورخص سعره، حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدني. وصار من تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه في قلبه، يزعم أن علمه لدني!! فملاحدة الاتحادية، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون: إن علمهم لدني! وقد صنف في العلم اللدني متهوكو المتكلمين، وزنادقة المتصوفين، وجهلة المتفلسفين، وكل يزعم أن علمه لدني! وصدقوا وكذبوا، فإن "اللدني" منسوب إلى "لدن" بمعنى "عند"، فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه، وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى: (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)، وقال تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) وقال تعالى: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء) فكل من قال: هذا العلم من عند الله ـ وهو كاذب في هذه النسبة ـ فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا في القرآن كثير، يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم به، ومن قال عليه ما لا يعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب، وجعل أشدها القول عليه بلا علم، فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال، بل هي محرمة في كل ملة، وعلى لسان كل رسول، فالقائل: إن هذا "علم لدني" لما لا يعلم به من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على الله، وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين".

على أن كثيرا من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام.

قال العلامة الألوسي في تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف:

"وممن صرح بأن الإلهام بحجة من الصوفية: الإمام الشعراني، وقال: قد زل في هذا الباب خلق كثير فضلوا وأضلوا، ولنا في ذلك مؤلف سميته "حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام" وهو مجلد لطيف".

فمن احتج بالإلهام وحده على حكم شرعي فاحتجاجه مردود عليه.

موقفنامن قضية الكشف والإلهام

وموقفنا من قضية الكشف والإلهام، هو موقف العلماء الربانيين من دعاة "الوسطية الإسلامية" وهم الذين جمعوا بين النورين: نور العقل ونور القلب، نور العلم ونور الإيمان، نور الفطرة ونور النبوة، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول، ووفقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وردوا الفروع إلى الأصول، والمتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يخسروا الميزان، ولم يطغوا فيه، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد، واعتصموا من الدين بحبل متين: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم).

وقد شرحنا هذا الموقف في بعض كتبنا مفصلا، ولا بأس أن نلخصه هنا:

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققي علماء السنة، هو الذي يعبر بحق عن وسطية المنهج الإسلامي، ووسطية الأمة الإسلامية.

فهم لا يغلقون بابا من أبواب المعرفة والوعي، فتحه الله لبعض الناس، في بعض الأوقات، بجوار البابين الآخرين، من أبواب المعرفة، وهما اللذان لهما صفة العموم والدوام.

أعني: باب الحواس، وخصوصا السمع والبصر، وباب العقل، وقد يعبر عنه في القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب، يقول تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، ويقول سبحانه وتعالى:

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان: السمع والأبصار للمعرفة الحسية، والأفئدة للمعرفة العقلية.

والمعرفة "السمعية" تدخل فيها العلوم النقلية، ومنها: علوم الدين، فهي علوم سمعية، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب.

والمعرفة "البصرية" تدخل فيها العلوم التجريبية، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس، وأساسها البصر والمشاهدة.

والمعرفة "الفؤادية" أو "القلبية" يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام، وهو ما يسمونه "المعرفة الروحية".

ذلك أن كلمة "الفؤاد" أو "القلب" ليست مرادفة لكلمة "العقل"، بل هي أعم وأشمل، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة، ولذا توصف أحيانا بالعقل أو الفقه، كما في قوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها).

وقوله في أهل النار: (لهم قلوب لا يفقهون بها).

وقد يراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يطلق عليه الآن اسم "الروح" أو "الضمير" أو "البصيرة"، أو نحو ذلك من الكلمات التي تعبر عن نوع من الوعي المباشر دون الأدوات التي يستخدمها العقل المنطقي في تحصيل معرفته.

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة "الأفئدة" أو "القلوب" فإن مما لا ريب فيه أن فيها نورا فطريا أودعه الله فيها، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى، فيكون كما قال الله تعالى: (نور على نور).

كما أن الكفر والجحود والغفلة واتباع الهوى، يعطل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان، ويخرب صلاحيتها، كما قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون).

وقال عن بعض الكفار الذي نزل بهم عقاب الله: (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون).

وقال تعالى: (أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون).

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسنة يسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة، وإنما أرادوا أن يقيدوه بالأصول والضوابط التي تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه.

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد "المنطق" الذي عرفوه بأنه "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر"، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف (وإن كان للإسلاميين ملاحظات ومآخذ على هذا العلم مذكورة في مواضعها).

وإذا كان الشرعيون قد وفقهم الله لوضع علم "أصول الفقه" لضبط الاستدلال فيما فيه نص، وفيما لا نص فيه، وأسسوا بذلك علما عظيما لم يعرف مثله في حضارة من الحضارات، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الإسلامي.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والإلهام، وندع الباب مفتوحا على مصراعيه، لكل من هب ودب، ممن تخيل فخال، أو من لا يميز بين إلهام الملك ونفث الشيطان، أو من ادعى الوصول ولم يرع الأصول، من كل دجال يشتري الدنيا بالدين، ويتبع غير سبيل المؤمنين؟!

هذا ما يراه الربانيون من علماء السنة، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نورا يكشف له بعض المستورات والحقائق، ويهديه إلى الصواب في بعض المواقف والمضايق، بدون اكتساب ولا استدلال، بل هبة من الله تعالى، وإلهاما منه.

ومن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة في الإنسان، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين، في بعض الأحوال والأوقات، تفضلا منه وتكرما: (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم).

أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام

ولا نزاع في أن الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس، لها أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين.

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم، وأنوار المعرفة، في فهم كتابه أو سنة نبيه، بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني ـ ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل، فلا يظفرون بما يدانيه، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم.

ولا نزاع كذلك في أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه، أو كلمة يسمعها منه، أو يقرأ أفكاره، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه.

وهي موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة، وتنميها تقوى الله تعالى، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة، حتى إن

المؤمن لتصدق فراسته، كأنما ينظر بنور الله، ونطق بلسان القدر، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق.

ولابن القيم هنا كلام جيد في "مدارج السالكين" ينبغي أن يقرأ ويراجع.

لكشف والإلهام

وموقفنا من قضية الكشف والإلهام، هو موقف العلماء الربانيين من دعاة "الوسطية الإسلامية" وهم الذين جمعوا بين النورين: نور العقل ونور القلب، نور العلم ونور الإيمان، نور الفطرة ونور النبوة، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول، ووفقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وردوا الفروع إلى الأصول، والمتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يخسروا الميزان، ولم يطغوا فيه، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد، واعتصموا من الدين بحبل متين: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم).

وقد شرحنا هذا الموقف في بعض كتبنا مفصلا، ولا بأس أن نلخصه هنا:

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققي علماء السنة، هو الذي يعبر بحق عن وسطية المنهج الإسلامي، ووسطية الأمة الإسلامية.

فهم لا يغلقون بابا من أبواب المعرفة والوعي، فتحه الله لبعض الناس، في بعض الأوقات، بجوار البابين الآخرين، من أبواب المعرفة، وهما اللذان لهما صفة العموم والدوام.

أعني: باب الحواس، وخصوصا السمع والبصر، وباب العقل، وقد يعبر عنه في القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب، يقول تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، ويقول سبحانه وتعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار

والأفئدة لعلكم تشكرون)، فجعل هذه الثلاثة منافذ المعرفة للإنسان: السمع والأبصار للمعرفة الحسية، والأفئدة للمعرفة العقلية.

والمعرفة "السمعية" تدخل فيها العلوم النقلية، ومنها: علوم الدين، فهي علوم سمعية، وإن نقلت عن طريق القلم والكتاب.

والمعرفة "البصرية" تدخل فيها العلوم التجريبية، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والقياس، وأساسها البصر والمشاهدة.

والمعرفة "الفؤادية" أو "القلبية" يدخل فيها المعرفة العقلية الخالصة، عن طريق النظر والتفكير والاعتبار والاستدلال، كما يمكن أن يدخل فيها المعرفة المباشرة عن طريق البصيرة والحدس والإلهام، وهو ما يسمونه "المعرفة الروحية".

ذلك أن كلمة "الفؤاد" أو "القلب" ليست مرادفة لكلمة "العقل"، بل هي أعم وأشمل، فقد يراد منها تلك اللطيفة المدركة العاقلة المفكرة، ولذا توصف أحيانا بالعقل أو الفقه، كما في قوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها).

وقوله في أهل النار: (لهم قلوب لا يفقهون بها).

وقد يراد من كلمة الفؤاد أو القلب ما يطلق عليه الآن اسم "الروح" أو "الضمير" أو "البصيرة"، أو نحو ذلك من الكلمات التي تعبر عن نوع من الوعي المباشر دون الأدوات التي يستخدمها العقل المنطقي في تحصيل معرفته.

ومهما يكن من تفسيرنا لكلمة "الأفئدة" أو "القلوب" فإن مما لا ريب فيه أن فيها نورا فطريا أودعه الله فيها، يزداد بالإيمان والمجاهدة والتقوى، فيكون كما قال الله تعالى: (نور على نور).

كما أن الكفر والجحود والغفلة واتباع الهوى، يعطل هذه الأجهزة المعرفية لدى الإنسان، ويخرب صلاحيتها، كما قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن

والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون).

وقال عن بعض الكفار الذي نزل بهم عقاب الله: (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون).

وقال تعالى: (أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون).

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسنة يسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة، وإنما أرادوا أن يقيدوه بالأصول والضوابط التي تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه.

وإذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد "المنطق" الذي عرفوه بأنه "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر"، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف (وإن كان للإسلاميين ملاحظات ومآخذ على هذا العلم مذكورة في مواضعها).

وإذا كان الشرعيون قد وفقهم الله لوضع علم "أصول الفقه" لضبط الاستدلال فيما فيه نص، وفيما لا نص فيه، وأسسوا بذلك علما عظيما لم يعرف مثله في حضارة من الحضارات، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الإسلامي.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والإلهام، وندع الباب مفتوحا على مصراعيه، لكل من هب ودب، ممن تخيل فخال، أو من لا يميز بين إلهام الملك ونفث الشيطان، أو من ادعى الوصول ولم يرع الأصول، من كل دجال يشتري الدنيا بالدين، ويتبع غير سبيل المؤمنين؟!

هذا ما يراه الربانيون من علماء السنة، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نورا يكشف له بعض المستورات والحقائق، ويهديه إلى الصواب

في بعض المواقف والمضايق، بدون اكتساب ولا استدلال، بل هبة من الله تعالى، وإلهاما منه.

ومن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة في الإنسان، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين، في بعض الأحوال والأوقات، تفضلا منه وتكرما: (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم).

أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام

ولا نزاع في أن الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس، لها أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين.

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم، وأنوار المعرفة، في فهم كتابه أو سنة نبيه، بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني ـ ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل، فلا يظفرون بما يدانيه، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم.

ولا نزاع كذلك في أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه، أو كلمة يسمعها منه، أو يقرأ أفكاره، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه.

وهي موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة، وتنميها تقوى الله تعالى، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة، حتى إن

المؤمن لتصدق فراسته، كأنما ينظر بنور الله، ونطق بلسان القدر، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق.

ولابن القيم هنا كلام جيد في "مدارج السالكين" ينبغي أن يقرأ ويراجع.

ابن تيمية لا ينكر مطلق الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى

ومن الناس من يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الروحية في نفس الإنسان المسلم، فلا تفيده نورا يبصر به في الظلمات، ولا فرقانا يميز به بين المتشابهات، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات، وأن شأن المؤمن العابد التقي المحاسب لنفسه، المراقب لربه، المخلص في عمله ونيته، كشأن العاصي المسرف على نفسه، أو الغافل عن ذكر ربه، الناسي لأمر آخرته، إذا استويا في الذكاء والتحصيل!

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت في فريق من الحرفيين الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السلفية.

وكثيرا ما ظلم شيخ الإسلام وأصحابه، ونسب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به، وما يكذبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية، وما ظلموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين، من زوامل النقل، وأسارى الرسم والشكل، الذين شغلوا بالظاهر عن الباطن، وبالصور عن الحقائق. الذين حرموا عمق الحاسة الروحية، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال القلوب، ومقامات الإيمان والإحسان، وتزكية الأنفس، ومجاهدتها في الله، حتى يهديها سبله، ويذيقها حلاوة الإيمان.

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصه رضي الله عنه.

يقول فيما نقل في مجموع فتاواه ورسائله:

"القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي! قال: فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله، كان هذا ترجيحا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقا إلى الحقائق مطلقا أخطأوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة، التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأصول الفقه.

وقد قال عمر بن الخطاب: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تنجلي لهم أمور صادقة.

وقال أبو سليمان الداراني: إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت، ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد، من غير أن يؤدي إليها عالم علما.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء".

ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية، فإنه يعرف ذلك معرفة تامة، لأنه قاصد العمل بها، فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحا لا تصريحا:

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها".

ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان، فكيف حال من الله سمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: الإثم حواز القلوب. وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

وأيضا فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة، شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها، وعرفت معروفها، قال عمر: الحق أبلج، لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها.

وإذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجا يزهر، وفي الحديث الصحيح: "إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن، قارئ وغير قارئ"، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا سيما في الفتن.

وكلما قوى الإيمان في القلب قوى انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف في قوله: (نور على نور) قال: هو المؤمن ينطق الحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع بها بالأثر كان نورا على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن

يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر"، والمحدث: هو الملهم المخاطب في سره، وما قال عمر لشيء: إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه.

وأيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظنا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج، فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه، وربما لوح أو صرح به خوفا من الله، وشفقة على خلق الله، ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر، أو فاسق، أو ديوث، أو لوطي، أو خمار، أو مغن، أو كاذب، من غير دليل ظاهر، بل بما يلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس، يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أو أولياء الله المؤمنين المتقين.

وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب، وأن الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه، وهذا باب واسع يطول بسطه، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها.

وما قاله شيخ الإسلام هنا، أكده وأيده تلميذه المحقق الإمام ابن القيم ـ رحمهما الله ـ في عدد من كتبه، وخصوصا في كتابه الشهير "مدارج السالكين".

شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا

كما لا نزاع في الإلهام والكشف في باب الكرامات والخوارق التي يكرم الله بها بعض أوليائه المتقين، فيقرب لهم البعيد، أو يكثر على أيديهم القليل، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل، أو مكنونات الصدور، أو خفايا الأمور، أو يذلل لهم بعض الصعاب، بغير الطريق المعتاد، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات، وتناقلته الروايات، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت، وما لا يسلم بعضه أيضا من مبالغة أو اختلاق.

ولكن المبدأ مسلم به وبنتائجه بشرطه، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة، ولا حكما شرعيا متفقا عليه.

وهو ما بينه وفصله بأدلته وأمثلته الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من "الموافقات"، فليرجع إليه.

فقد بين أن ما يخرم قاعدة شرعية، أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال، أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع، فإن التشريع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عام لا خاص، لا ينخرم أصله، ولا ينكسر له اطراد، ولا يستثنى من الدخول تحت حكمه مكلف.

وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضادا لما تمهد في الشريعة، فهو فاسد باطل.

قال الشاطبي: "ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر، فرأى الحاكم في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل"، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر ولا نهي،، ولا بشارة، ولا نذارة، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع، وما روي: "أن أبا بكر رضي الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت"، فهي قضية عين لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها، فلعل الورثة رضوا بذلك، فلا يلزم منها خرم أصل.

"وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعين مغصوب أو نجس، أو أن هذا الشاهد كاذب، أو أن المال لزيد وقد تحصل بالحجة لعمرو، أو ما أشبه ذلك، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، ولا ترك قبول الشاهد، ولا الشهادة بالمال لزيد على حال. فإن الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر، فلا يتركها اعتمادا على مجرد المكاشفة أو الفراسة، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها، وإن ترتبت في الظاهر موجباتها، وهذا غير صحيح بحال، فكذا ما نحن فيه.

"وقد جاء في الصحيح: "إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له على نحو ما أسمع منه" .. الحديث، فقيد الحكم بمقتضى ما يسمع ويترك ما وراء ذلك، وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه".

وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم، ولكنه لم يعاملهم وفقا لما كشف الله له من بواطنهم، بل عاملهم حسب ظواهرهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومنحهم حقوق المسلمين في الحياة وبعد الممات.

وبهذا رد على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين فقال: "أخشى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"!

وهكذا أمرنا أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس.

قصة موسى والخضر

وخلافنا إنما هو مع الغلاة من الصوفية الذين اعتبروا كشفهم وإلهامهم مصدرا للأحكام الشرعية، فيحلون على أساسه وحده ويحرمون!

ويأخذون من قصة موسى والخضر: أن العلم اللدني مقدم على العلم الشرعي، وأن هناك "شريعة" يعلمها الفقهاء، و"حقيقة" يعرفها الأولياء، وأن الحقيقة مقدمة على الشريعة، فالشريعة للعوام والحقيقة للخواص، ويستدلون على هذه التفرقة بهذه القصة، التي ذكرها الله في سورة الكهف. فموسى ـ في نظرهم ـ كان ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة، وقتل الغلام بغير جناية، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراما ولا معونة.

وأما الخضر فكان ينظر بعين الحقيقة، ولهذا بين لموسى ما وراء كل أمر من هذه الأمور الثلاثة من أسرار وغيوب، فسلم موسى للخضر، لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر، علم الشريعة، والخضر كان معه علم الباطن، وهو علم الحقيقة!

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب، إنما هو علم وهبي من لدن الله مباشرة وبلا واسطة، ويسمونه "العلم اللدني" أخذا من قوله تعالى: (وعلمناه من لدنا علما).

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع، الذي يعرف النصوص، ويعلم بالشواهد والأدلة، ويطلب من العلماء، ويروى بالأسانيد، ويسمونه "علم الورق".

وإنما يعنيهم علم "الباطن" أو "الحقيقة" أو "العلم اللدني" كما يسمونه، علم الخضر لا علم موسى، علم "أصحاب الأذواق"، لا علم "أصحاب الأوراق"، علم الصوفية لا علم المحدثين والفقهاء.

بل قال بعضهم في جراءة عجيبة: إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله جل جلاله!!

ولا ريب أن هذا من الجهل والعجب، والغرور، والشرود عن سواء الصراط، الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الغر الميامين. والتابعون لهم بإحسان، بل هم الذي سار عليه شيوخ الصوفية الأوائل أنفسهم، وربوا عليه مريديهم، وشددوا في ذلك، ولم يتهاونوا فيه.

وقد بين الإمام الشاطبي في "الموافقات" أن من خصائص الشريعة عمومها لكل المكلفين في كلاالأوضاع والأحوال.

فلا يخرج عنها ولي ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره، وأن العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعا، فليس الاطلاع على المغيبات، ولا الكشف الصحيح بالذي يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية، والقدوة في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ما جرى عليه السلف الصالح رضي الله عنهم.

ثم تعرض لقصة "الخضر" التي يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لم سموهم الأولياء، أو أهل الكشف، وقال فيها:

"وأما قصة الخضر ـ عليه السلام ـ وقوله: (وما فعلته عن أمري)، فيظهر به أنه نبي، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالا بهذا القول. ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال، وإن سلم فهي قضية عين، ولأمر ما، وليست جارية على شرعنا.

والدليل على ذلك أنه لا يجوز في هذه الملة لولي، ولا لغيره ممن ليس بنبي أن يقتل صبيا لم يبلغ الحلم، وإن علم أنه طبع كافرا، وأنه لا يؤمن أبدا، وأنه إن

عاش أرهق أبويه طغيانا وكفرا، وإن أذن له من عالم الغيب في ذلك، لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهي، وإنما الظاهر في تلك القصة أنها وقعت على مقتضى شريعة أخرى، وعلى مقتضى عتاب موسى عليه السلام، وإعلامه أن ثم علما آخر، وقضايا أخر لا يعلمها هو.

فليس كل ما اطلع عليه الولي من الغيوب يسوغ له شرعا أن يعمل عليه، بل هو على ضربين:

أحدهما: ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليه، فهذا لا يصح العلم عليه البتة.

والثاني: ما لم يخالف العمل به شيئا من الظواهر، أو إن ظهر منه خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها، فهذا يسوغ العمل عليه. وقد تقدم بيانه.

فإذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب، وعليه يربي المربي، وبه يعلق همم السالكين، تأسيا بسيد المتبوعين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ، وأولى برسوخ القدم، وأحرى بأن يتابع عليه صاحبه، ويقتدى به فيه، والله أعلم".

وقبل الشاطبي بين شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة: الغلط الذي وقع لأولئك القوم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة، مجتهدا أن يرد ما فعله الخضر إلى الشريعة.

ومما ذكره: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر، ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته، بل قد ثبت في الصحيحين: "أن الخضر قال له: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة.

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما فضله الله به على الأنبياء، قال: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة".

فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع العباد، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته، والاستغناء عن رسالته، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته، مستغنيا عنه بما علمه الله.

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه.

ومن سوغ هذا، أو اعتقد أن أحدا من الخلق ـ الزهاد والعباد أو غيرهم ـ له الخروج عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ومتابعته، فهو كافر باتفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا.

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل، وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ. ولو كان ما فعله الخضر مخالفا لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضل من الأول، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله، إما بإذن لفظي أو غيره، فيتصرف، وذلك مباح في الشريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف.

وخرق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك، لئلا يأخذها.. خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها فأذن لهم في أكلها، ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح، لأنه كان مأذونا فيه عرفا، والإذن العرفي، كالإذن اللفظي.

ولهذا بايع النبي صلى الله عليه وسلم عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظا.

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلا إلى بيته، قام بجمع أهل المسجد، لما علم من طيب نفس أبي طلحة، وذلك لما يجعله الله من البركة، وكذلك حديث جابر.

وقد ثبت أن لحاما، دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه، لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك قتل الغلام، كان من باب دفع الصائل على أبويه، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال.

فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: "إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم".

ونقل الحافظ ابن الحجر في "فتح الباري" عن الإمام القرطبي كلمة قيمة تعليقا على قصة موسى والخضر وما يستفاد منها من أحكام وعبر، قال فيها:

"ولننبه هنا على مغلطتين:

الأولى: وقع لبعض الجهالة أن الخضر أفضل من موسى تمسكا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام من الرسالة، وسماع كلام الله،

وإعطائه التوراة فيما علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته، حتى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: (يا موسى أنى اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي).

قال: والخضر وإن كان نبيا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول، فرسالة موسى أعظم، وأمته أكثر، فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم. وإن قلنا: إن الخضر ليس بنبي بل ولي، فالنبي أفضل من الولي، وهو أمر مقطوع به عقلا ونقلا، والصائر إلى خلافه كافر، لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة. قال: وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانا لموسى ليعتبر.

الثانية: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر: أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص، فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتنجلي لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيفقون على أسرار الكائنات، ويعلمون الأحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور: "استفت قلبك وإن أفتوك".

قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر، لأنه إنكار لما علم من الشرائع، فإن الله قد أجرى سنته، وأنفذ كلمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله، السفراء بينه وبين خلقه، المبينين لشرائعه وأحكامه، كما قال الله تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس)، وقال: (الله أعلم حيث يجعل رسالته)، وأمر بطاعتهم في كل ما جاءوا به، وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به، فإن فيه الهدى، وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على

ذلك، فمن ادعى أن هناك طريقا أخرى يعرف بها أمره ونهيه، غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغنى بها عن الرسول، فهو كافر يقتل ولا يستتاب.

وقال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا، لأن من قال: إنه يأخذ عن قلبه، لأن الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه، من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: "إن روح القدس نفث في روعي".

قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت! وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي وعن ربي! وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، ونسأل الله الهداية والتوفيق.

وقال غيره: من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة، ويجوز له فعله، فقد ضل، وليس ما تمسك به صحيحا، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها، ثم إذا تركها أعيد اللوح، جائز شرعا وعقلا، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر. وقد وقع ذلك واضحا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم ولفظه: فإذا جاء الذي يسخرها فوجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها، فيستفاد منه وجوب التأني عن الإنكار في المحتملات. وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة. وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان"، والله أعلم.

ومن هنا يتبين لنا أن العلم الشرعي لا يستغني عنه أحد، ولا يخرج عن حكمه أحد، أيا كانت منزلته في دين الله أو في دنيا الناس.

فاللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم).

الفهرس

مقدمة..٢
الفصل الأول - منزلة العقل والعلم في الإسلام...٥٥
الفصل الثاني - أثر العلم في الإيمان والسلوك ٦٦
الفصل الثالث - طلب العلم فريضة ٨٥
الفصل الرابع - حقوق العلم على أصحابه..٩٩
الفصل الخامس - الصوفية والعلم..١١٤

www.al-mostafa.com